حافظ إبراهيم

شاعر النيل

١٨٧٢ - ١٩٣٢

هو صنو شوقي في إحياء دولة العشر، ولئن يميز شوقي بالزعامة كما أسلفنا في الحديث عن شوقي، فإن حافظا يمتاز عنه بأن نشأته وحياته كانت شعبية، في حين كانت نشأة شوقي وحياته أرستقراطية، فكان حافظ أقرب إلى روح الشعب ومشاعره، وأقدر على تصوير آلامه التي شاركه فيها، واكتوى بلهيبها، فكان لذلك أبلغ في التعبير عنها، وكانت عباراته أسهل وأقرب إلى إدراك معانيها من عبارات شوقي، لأنه كان يحس إحساساً قوياً أنه يخاطب الشعب في مجمعة مثقفيه وقارئيه.

ولد حافظ إبراهيم سنة ١٨٧٢ من أب مصري وأم من أسرة تركية، كان أبوه إبراهيم أفندي فهمي مهندساً يشرف على قناطر ديروط حيث ولد حافظ، وتوفى وحافظ في الرابعة من عمره، فكفله خاله محمد أفندي نيازي وعاش في كنفه عيشة الطبقات المتوسطة التي كانت أقرب إلى الضيق منه إلى اليسر، فأحس حافظ منذ صباه بما تعانيه الطبقات الشعبية من جهد ورقة حال، ولما ظهرت مواهبه الشعرية كان الترجمان الصادق الأمين لهذه الطبقات.

تلقى التعليم الابتدائي وجزءاً من التعليم الثانوي، ولكنه لم يتمه، وانتقل مع خاله إلى طنطا وكان مهندس تنظيم بها وانقطع حافظ وقتاً ما عن متابعة التعليم، واتجهت نفسه إلى الأدب والشعر.

واشتغل وقتاً وجيزاً بالمحاماة بطنطا، ولكنه لم يستمر فيها إذ لم يجد من نفسه ميلاً إليها لما كانت تقتضيه من دأب على العمل المتواصل وهو لم يكن يميل إلى التقيد بمثل هذا الدأب، بل كان كالطير ينطلق مغرداً بين مختلف الأشجار والأغصان.

ولقد فكر في أن يكون ضابطاً بالجيش إذا كانت الحياة العسكرية مما يستثير في نفسه روح الشعر والخيال، أو لعله أراد أن يقلد البارودي في نشأته العسكرية، فالتحق بالمدرسة الحربية بالقاهرة، وتخرج منها سنة ١٨٩١ ضابطاً برتبة ملازم ثان، وكان إذ ذاك في سن العشرين تقريباً، وانتظم في حملة السودان بقيادة اللورد كتشنر سردار الجيش المصري وقتئذ، ولما انتهت الحملة بانفراد الإنجليز بحكم السودان عافت نفسه البقاء في ربوعه، فالتمس إحالته إلى المعاش وأجيب طلبه وعاد إلى مصر، وغشى مجالس الشعراء والأدباء والعلماء، وأفاض فيها من شعره وأدبه، فتألقت شاعريته، وعرف له معاصروه فضله ومكانته في عالم الأدب والشعر، وإذ كان الشعر لا يدر عليه ما يحفظ مكانته من الوجهة المادية فق عينه أحمد حشمت وزير المعارف في سنة ١٩١١ رئيساً للقسم الأدبي في دار الكتب المصرية، وظل بها إلى فبراير سنة ١٩٣٢ إذ إحيل إلى المعاش لبلوغه السن القانونية، وتوفى يوم ٢١ يوليه سنة ١٩٣٢.

كان حافظ شاعراً بطبعه، ظهرت مواهبه الشعرية وهو في السادسة عشرة من عمره، ولم يتلقها عن معلم أو أديب، ولا تعلمها في المدارس التي انتظم بها، بل كانت وحي الإلهام، والسليقة، فكان يقول الشعر وهو في هذه السن المبكرة، ويأخذ نفسهن بالمطالعات الشعرية ويحفظ قصائد فحول الشعراء المتقدمين، واشتدت به الرغبة إلى محاكاتهم في جيد الشعر، فواتته سليقته الشعرية وساعدته على تحقيق رغبته، وبذَّ مع الزمن أولئك الشعراء، وبلغ الذروة في عالم الشعر والأدب.

وحافظ يمتاز في شعره بقوة البلاغة وإشراق الديباجة وطلاوة الأسلوب والروح الخطابية ولقد أنصفه شوقي إذ قال في رثائه:

يا حافظ الفصحى وحارس مجدها ... وإمام من نجلت من البلغاء [1]
مازلت تهتف بالقديم وفضله ... حتى حميت أمانة القدماء
خلفت في الدنيا بيانا خالدا ... وتركت أجيالا من الأبناء
وغدا سيذكرك الزمان ولم يزل ... للدهر إنصاف وحسن جزاء

---

(١) نجلت: أي ولدت.

obeikandl.com

أضفت الوطنية على شعر حافظ هالة من العظمة والمجد، فقد كان بلا مراء خبر ترجمان للشعب في أحاسيسه وآماله، وخير مواس له في مآسيه وآلامه، وتغنى بمصر والنيل في قصائده الغر، ولعل بقاءه في السودان عدة سنين، ومشاهدته غدر الإنجليز هناك، وتدابيرهم في تحقيق أغراضهم الاستعمارية، قد زاده سخطا على الاستعمار واستمساكاً بوحدة وادي النيل، وتجلت هذه المواهب في عشره في شتى المناسبات حتى سمي بحق "شاعر النيل"، وهو إلى جانب ذلك شاعر الوطنية والاجتماع والأخلاق، كان لا يفتأ يدعو قومه إلى التسلح بالأخلاق في جهادهم للحرية، إذ يرى الأخلاق قوام الجهاد الصحيح، وبلغت دعوته إلى الأخلاق حد التقريع في مخاطبته لبني وطنه ومجابهتهم بالحق الصريح.

وحافظ وإن كانت ثقافته شرقية إلا أنه قد تعلم الفرنسية على كبر، واقتبس من الآداب الفرنسية ما استطاع أن يقتبسه، وساعده ذكاؤه وألمعيته على محاكاة العشر الغربي أحياناً، وكان يميل إلى التجديد في شعره، وفي ذلك يقول:

آن يا شعر أن تفك قيودا ... قيدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا ... ودعونا نشم ريح الشمال

ولقد نجح حافظ في أن يرتفع بشعره في كثير من المواطن إلى التجديد واقتباس المعاني والأفكار والأساليب الحديثة، فزاد شعره طلاوة ورنينا موسيقياً حببه إلى النفوس وجعلا بعض قصائده أشبه بالأغاني والتغاريد.

الوطنية في شعر حافظ

تتجلى الروح الوطنية ويتألق نورها في شعر حافظ، ولقد وجدت الحركة الوطنية في قصائده البديعية قوة تستمد منها الحماسة والصمود في الجهاد، والثورة على الاحتلال.

كان شعره معيناً لا ينضب من الكفاح الوطني، وكان حبه للوطن يملك عليه شغاف قلبه، ويلهمه الذود عن حريته واستقلاله، ولقد عبر عن هذه العاطفة الملتهبة بقوله من قصيدة له سنة ١٩٠٠:

متى أرى النيل لا تحلو موارده ... لغير مرتهب لله مرتقب
فقد غدت مصر في حال إذ ذكرت ... جادت جفوني لها باللؤلؤ الرطب

كـــأنني عنـــد ذكـــرى مـــا ألـــم بهـــا ... قـــرم تـــردد بـــين المـــوت والهـــرب [1]
إذا نطقـــت فقـــاع الســـجن متكـــأ ... وإن ســـكت فـــإن الـــنفس لـــم تطـــب
أيشـــتكي الفقـــر غادينـــا ورائحنـــا ... ونحـن نمشـي علـى أرض مـن الـذهب؟!

وقوله في قصيدة له سنة ١٩٠٩:

لعمـــرك مـــا أرقـــت لغيـــر مصـــر ... ومـــــالي دونهـــــا أمـــــل يـــــرام
ذكـــرت جلالهـــا أيـــام كانـــت ... تصـــول بهـــا الفراعنـــة العظـــام
وأيـــام الرجـــال بهـــا رجـــال ... وأيـــام الزمـــان لهـــا غـــلام

وقوله من قصيدة له سنة ١٩١٠:

كـــم ذا يكابـــد عاشـــق ويلاقـــي ... فـــي حـــب مصـــر كثيـــرة العشـــاق
إنـــي لأحمـــل فـــي هـــواك صـــبابة ... يـــا مصـــر قـــد خرجـــت عـــن الأطـــواق [2]
لهفـــي عليـــك متـــى أراك طليقـــة ... يحمـــي كـــريم حمـــاك شـــعب راقـــي
كلـــف بمحمـــود الخـــلال متـــيم ... بالبـــذل بـــين يـــديك والإنفـــاق

---

(١) القرم: أي الرجل الشجاع.

(٢) الأطواق جمع طوق: أي الجهد والطاقة.

obeikandl.com

وقوله من قصيدة له سنة ١٩١٩ نظمها في (ملجأ الحرية):

فتعاهـــــدنا علـــــى دفـــــع الأذى ... بركـــــوب الحـــــزم حتـــــى نظفـــــرا
وتواصـــــينا بصـــــبر بيننـــــا ... فغـــــدونا قـــــوة لا تـــــزدري
أنشـــرت فـــي مصـــر شـــعباً صـــالحاً ... كـــان قبـــل اليـــوم منفـــك العـــرا [١]
كـــم محـــب هـــائم فـــي حبهـــا ... ذاد عـــن اجفانـــه شـــرح الكـــرى [٢]
وشـــــاب وكهـــــول أقســـــموا ... أن يشـــيدوا مجـــدها فـــوق الـــذرا [٣]

حافظ ومصطفى كامل

عاصر حافظ مصطفى كامل. وكان صديقاً له معجبا بجهاده. رغم صداقته وصلته بخصومه السياسيين. وكان مصطفى شديد الإعجاب بشعره وأدبه. وعندما ظهر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠١ قرظه في "اللواء" [٤] تقريظاً يدل على عظم تقديره لشاعر النيل وأسهب في الثناء عليه سنة ١٩٠٣ عرب كتاب (البؤساء) لفيكتور هيجو.

قصيدة حافظ في حفلة مدرسة مصطفى كامل

ويبدو إعجاب حافظ بمصطفى وجهاده في قصيدته التي ألقاها يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٠٦ في احتفال مدرس مصطفى كالم تعليقاً على خطبة مصطفى. قال في مطلعها:

ســـمعنا حـــديثا [٥] كقطـــر النـــدى ... فجـــدد فـــي الـــنفس مـــا جـــددا
وأضـــــحى لآمالنـــــا منعشـــــاً ... وأمســـــى لآلامنـــــا مرقـــــدا

---

(١) أنشرت: أحيت.

(٢) الكري: النوم.

(٣) الذرا: جمع ذروة وهي المكان المرتفع.

(٤) عدد ٩ أكتوبر سنة ١٩٠١.

(٥) يقصد خطبة مصطفى كامل في الحفلة.

obeikandl.com

وقال يستثير في النفوس روح الأمل والحياة وهي الدعوة المحببة إلى الفقيد:

فـــديناك يـــا شـــرق لا تجـــزعن ... إذا اليـــوم ولـــي فراقـــب غـــدا
فكـــم محنـــة أعقبـــت محنـــة ... وولـــت ســـراعاً كرجـــع الصـــدى
فـــلا يبئســـنك قيـــل العـــداة ... وإن كـــان قـــيلا كحـــز المـــدى [١]
وأتـــودع فيـــك كنـــوز العلـــوم ... ويمشـــي لـــك الغـــرب مســـترفدا [٢]
وتبعـــث فـــي أرضـــك الأنبيـــاء ... ويـــأتي لـــك الغـــرب مسترشـــدا
وتقضـــي عليـــك قضـــاة الضـــلال ... طـــوال الليـــالي بـــأن ترقـــدا؟
أتشـــقي بعهـــد ســـما بـــالعلوم ... فأضـــحى للضـــعيف بهـــا أيـــدا [٣]
إذا شـــاء بـــز للســـها ســـره ... وأدرك مـــن جريـــه المقصـــدا [٤]
وإن شـــاء أدنـــى إليـــه النجـــوم ... فنـــاجى المجـــرة والفرقـــدا [٥]
وإن شـــاء زعـــزع شـــم الجبـــال ... فخـــرت لأقدامـــه ســـجدا
وإن شـــاء شـــاهد فـــي ذرة ... عـــوالم لـــم تحـــي فيهـــا ســـدى
زمـــان تســـخر فيـــه الريـــاح ... ويغـــدو الجمـــاد بـــه منشـــدا [٦]
وتعنـــوا الطبيعـــة للعـــارفين ... بمعنـــى الوجـــود وســـر الهـــدى
إذا مـــا أهـــابوا أجـــاب الحديـــد ... وقـــام البخـــار لـــه مســـعدا [٧]
وطـــارت إلـــيهم مـــن الكهربـــاء ... بـــروق علـــى الســـلك تطـــوي المـــدى

***

(١) المدى بالضم جمعا مدية: وهي السكين.

(٢) مسترفدا: أي يطلب الرفد وهو العطاء.

(٣) الأيد، بتشديد الياء: القوى، من الأيد بمعنى القوة.

(٤) بزه سلبه، والسها الكوكب المعروف، أي إذا شاء ذو العلم سلب من السهي سره وأظهره للناس.

(٥) المجرة والفرقد: نجوم في السماء.

(٦) يشير إلى الطيران والفوتوغراف.

(٧) مسعدا: أي معنيا.

أيجمـــل مـــن بعـــد هـــذا وذاك ... بـــأن نســـتكين وأن نجمـــدا؟
وهـــا أمـــة (الصـــفر) قـــد مهـــدت ... لنـــا الـــنهج فاســـتبقوا المـــوارد [1]

وقال فيها مخاطبا الشباب:

فيـــا أيهـــا الناشـــئون اعملـــوا ... علـــى خيـــر مصـــر وكونـــوا يـــدا
ســـتظهر فـــيكم ذوات الغيـــوب [2] ... رجـــالاً تكـــون لمصـــر الفـــدا
فيـــا ليـــت شـــعري مـــن مـــنكم ... إذا هـــي نـــادت يلبـــي النـــداء؟

وقال في ختامها مخاطباً مصطفى كامل:

لـك الله يـا (مصـطفى) مـن فتـى ... كثيـر الأيـادي كثيـر العـدا
إذا مـــا حمـــدتك بـــين الرجـــال ... فأنـــت الخليـــق بـــأن تحمـــدا
سيحصـــي عليـــك ســـجل الزمـــان ... ثنـــاء يخلـــد مـــا خلـــدا
ويهتـــف باســـمك أبناؤنـــا ... إذا آن للـــزرع أن يحصـــدا

والقصيدة من أبلغ شعر حافظ. وتأمل في البيت الأخير منه تجد حافظا يقر لمصطفى بأنه الموجد للحركة الوطنية، وأنه الجدير بأن تعرف الأمة له هذا الفضل عندما تجني ثمار هذه الحركة. وقد ظل على هذا الرأي بعد وفاة الفقيد وبعد ظهور زعامة سعد زغلول للحركة الوطنية سنة ١٩١٩. وجهر به في رثائه للمرحوم محمد فريد في ديسمبر سنة ١٩١٩، إذا قال مناجيا روح فريد:

قـل (لصـاحب النيـل) [3] إن لاقيتـه ... فـي جـوار الـدائم الفـرد الصـمد
إن مصـراً لا تنـي عـن قصـدها ... رغـم مـا تلقـى وإن طـال الأمـد
جئـت عنهـا أحمـل البشـرى إلـى ... (أول البـانين) فـي هـذا البلـد

(١) أمة الصفر: أي اليابان.

(٢) ذوات الغيوب: أي الأقدار التي في عالم الغيب.

(٣) يريد مصطفى كامل.

obeikandl.com

فاســـترح واهنـــأ ونـــم فـــي غبطـــة قـــد بـــذرت الحـــب والشـــعب حصـــد

فحافظ يعترف هنا أيضاً لمصطفى بأنه ألو البانين في صرح الحركة الوطنية، وبأنه بذر الحب وأن الشعب حصد وجني ثمار ما بذر. ورأي حافظ سنة ١٩١٩ هو تأييد وتوكيد لرأيه سنة ١٩٠٦.

قصيدة حافظ في حادثة دنشواي

لقيت حادثة دنشواي [١] صداها في شعر حافظ، فنشر في ٢ يوليه سنة ١٩٠٦- أي بعد صدور الحكم فيها بخمسة أيام- قصيدته المشهورة عن الحادثة. ندد فيها بسياسة الاحتلال، وسبق بها شوقي بعام، إذ أن شوقي لم يقل قصيدته عن الحادثة إلا بعد عام من وقوعها.

قال حافظ في مطلع قصيدته مخاطباً المحتلين:

أيهـــا القـــائمون بـــالأمر فينـــا! هـــل نســـيتم ولاءنـــا والـــودادا؟!
خفضـــوا جيشـــكم ونـــاموا هنيئـــا وابتغـــوا صـــيدكم وجوبـــوا الـــبلادا
وإذا أعـــــوزتكم ذات طـــــوق [٢] بـــين تلـــك الربـــا فصـــيدوا العبـــادا
إنمـــا نحـــن والحمـــام ســـواء لـــم تغـــادر أطواقنـــا الأجيـــادا [٣]
لا تظنـــوا بنـــا العقـــوق ولكـــن أرشـــدونا إذا ظللنـــا الرشـــادا
لا تقيـــدوا مـــن أمـــة بقتيـــل صـــادت الشـــمس نفســـه حـــين صـــادا [٤]

وقال يصف الحادثة وفظائع المحاكمة والتنفيذ:

---

(١) راجع تفصيلها في كتابنا (مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية).

(٢) ذات طوق: أي الحمامة.

(٣) الأطواق هنا سلاسل الأسر والاستعباد والأجياد الأعناق، جمع جيد.

(٤) أي لا تأخذوا الأمة بقتيل أنه مات بضربة الشمس، وهو الكابتن بول.. وأقاد الحاكم القاتل بالقتيل أي قتله به قودا.

جـــاء جهالنـــا بـــأمر وجئـــتم ضـــعف ضـــعفيه قســـوة واشـــتدادا
أحســـنوا القتـــل إن ضـــننتم بعفـــو أقصاصـــا أردتـــم أم كيـــادا؟
أحســـنوا القتـــل إن ضـــننتم بعفـــو أنفوســـا أصـــبتم أم جمـــادا؟

***

ليـــت شـــعري أتلـــك (محكمـــة التفـــ ـــتيش) عـــادت أم عهـــد (نيـــرون) عـــادا؟
كيـــف يحلـــو مـــن القـــوى التشـــفي م ضـــعيف ألقـــى إليـــه القيـــادا؟
إنهـــا مثلـــة تشـــف عـــن الغيـــ ـــظ ولســـنا لغـــيظكم أنـــدادا
أكرمونـــا بأرضـــنا حيـــث كنـــتم إنمـــا يكـــرم الجـــواد الجـــوادا
إن عشـــرين حجـــة بعـــد خمـــس علمتنـــا الســـكون مهمـــا تمـــادى
أمـــة النيـــل أكبـــرت أن تعـــادي مـــن رماهـــا وأشـــفقت إن تعـــادي
لـــيس فيهـــا إلا كـــلام وإلا حشـــرة بعـــد حســـرة تتهـــادى

وقال مخاطبا العمومي في القضية:

أيهـــا المـــدعي العمـــومي [1] مهـــلا بعـــض هـــذا فقـــد بلغـــت المـــرادا
قـــد ضـــمنا لـــك القضـــاء بمصـــر وضـــمنا لنجلـــك الإســـعادا
فـــإذا مـــا جلســـت للحكـــم فـــاذكر عهـــد (مصـــر) فقـــد شـــفيت الفـــؤادا
لا جـري النيـل فـي نواحيـك يـا (مصـر) ولا جـادك الحيـا حيـث جـادا [2]
أنـت أنبـت ذلـك النبـت يـا (مصـر) فأضـحى عليـك شـوكا قتـادا
أنـــت أنبـــت ناعقـــا قـــام بالآمـــ ـــس فـــأدمى القلـــوب والأكبـــادا

***

(١) إبراهيم الهلباوي.

(٢) الحيا: المطر.

obeikandl.com

إيــه يــا مــدره القضــاء ويــا مــن ســـــاد غفلـــــة الزمـــــان وشـــــادا
أنـــت جلادنـــا فـــلا تـــنس أنـــا قـــد لبســـنا علـــى يـــديك الحـــدادا

والقصيدة كما ترى من أروع ما قال حافظ، وفيها تصوير لتلك الحادثة الفظيعة التي أظهرت مبلغ الظلم البريطاني ومبلغ هوان المصري في نظر الاحتلال، ولقد حمل حافظ بأسلوبه اللاذع القوي على هذا الظلم حملات اهتزت لها أركانه، كما حمل على الضعف الذي كان من أسباب استفحال هذا الظلم، فكانت هذه الحملة دعوة صادقة إلى اطراح الضعف والأخذ بأسباب النهوض والقوة في محاربة الاحتلال.

قصيدته في استقبال اللورد كرومر
بعد حادث دنشواي

وعاد يصف فظائع الاحتلال في حادثة دنشواي في قصيدة له قالها في أكتوبر سنة ١٩٠٦ لمناسبة عودة اللورد كرومر المعتمد البريطاني في أجازته وكان صاحب الحول والطول وقتئذ في البلاد.

(قصـر الـدبارة) [١] هـل أتـاك حـديثنا فالشـــرق ري لـــه وضـــج المغـــرب
أهـــلاً بســـاكنك الكـــريم ومرحبـــا بعـــد التحيـــة إننـــي أتعتـــب
نقلـت لنـا الأسـلاك عنـك رسـالة باتـــت لهـــا أحشـــاؤنا تتهلـــب

إلى أن قال:

إن ضـاق صـدر النيـل عمـا هالـه يـوم الحمـام فـإن صـدرك أرحـب [١]
أو كلمـــا بـــاح الحـــزين بأنـــه أمسـت إلـى معنـى التعصـب تسـبب [١]

---

(١) يريد دار المعتمد البريطاني.

(١) يوم الحمام أي يوم صيد الحمام في حادثة دنشواي.

(١) بشير إلى ما زعم اللورد كرومر من أن التعصب الديني هو سبب حادثة دنشواي.

obeikandl.com

رفقاً عميد الدولتين بأمة ... ضاق الرجاء بها وضاق المذهب
رفقاً عميد الدولتين بأمة ... ليست بغير ولائها تتعذب
إن أرهقوا صيادكم فلعلهم ... للقوة لا للمسلمين تعصبوا
ولربما ضن الفقير بقوته ... وسخا بمهجته على من يغصب
في (دنشواي) وأنت عنا غائب ... لعب القضاء بنا وعز المهرب
حسبوا النفوس من الحمام بديلة ... فتسابقوا في صيدهن وصوبوا
نكبوا وأقفرت المنازل بعدهم ... لو كنت حاضر أمرهم لم ينكبوا!
خليتهم والقاسطون [١] بمرصد ... وسياطهم وحبالهم تتأهب
جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا ... بحبال من شنقوا ولو يتهيبوا
شنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا ... بلظى سياط الجالدين ورحبوا [٦]
يتحاسدون على الممات وكأسه ... بين الشفاه وطعمه لا يعذب
موتان: هذا عاجل متنمر ... يرنو وهذا آجل يترقب
والمستشار [٢] مكاثر برجاله ... ومعاجز ومناجز ومحزب
يختال في أنحائها متبسماً ... والدمع حول ركابه يتصبب
طاحوا بأربعة فأردوا خامسا ... هو خير ما يرجو العميد ويطلب
حب يحاول غرسه في أنفس ... يجني بمغرسها الثناء الطيب
كن كيف شئت ولا تكل أرواحنا ... للمستشار فإن عدلك أخصب
وأفض على (بند) [٣] إذا ولي القضا ... رفقا يهش له القضاء ويطرب

---

(١) القاسطون الظالمون.

(٢) يريد الكابتن متشل مستشار وزارة الداخلية. وكان يشرف على تنفيذ الحكم ومعاجز من عاجزت الرجل إذا أتيت بما يجعله عاجزا. وحزب أي جمع أعوانه وأحزابه فبعضهم يتولى الشنق وبعضهم يتولى الجلد.

(٣) المستر بوند وكيل محكمة الاستئناف واحد قضاة المحكمة المخصوصة التي حاكمت المتهمين في حادثة دنشواي وكان القاضي الموجه للأسئلة ونمت أسئلته على سوء نيته وميله إلى الانتقام والتشفي.

(٦) أهلوا ورحبوا أي قالوا أهلاً ومرحبا.

قصيدته في شكوى مصر من الاحتلال

قالها في يناير سنة ١٩٠٧:

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت ... حواشيه حتى بات ظلماً منظما
تمن [١] علينا اليوم أن أخضب الثرى ... وأن أصيح المصري حراً منعما
أعد عهد (إسماعيل) جلدا وسخرة ... فإني رأيت المن أنكى وآلما
عملتم على عز الجماد وذلنا ... فأغليتم طينا وأرخصتم دما
إذا أخصبت أرض وأجدب أهلها ... فلا أطلعت نبتاً ولا جادها السما
نهش إلى الدينار حتى إذا مشى ... به ربه للسوق ألفاه درهما
فلا تحسبوا في وفرة المال- لم تفد ... متاعاً ولم تعصم من الفقر- مغنما
فإن كثير المال- والخفض وارف ... قليل إذا حل الغلاء وخيما [٢]

قصيدته في استقالة اللورد كرومر

فتى الشعر هذا موطن الصدق والهدى ... فلا تكذب التاريخ إن كنت منشدا
لقد حان توديع العميد وإنه ... حقيق بتشييع المحبين والعدا
فودع لنا الطود الذي كان شامخاً ... وشيع لنا البحر الذي كان مزبدا

إلى أن قال:

يناديك قد أزريت بالعلم والحجا ... ولم تبق للتعليم يا (لورد) معهدا
وأنك أخصبت البلاد تعمدا ... وأجدبت في مصر العقول تعمدا
قضيت على أم اللغات وإنه ... قضاء علينا أو سبيل إلى الردي [٣]

---

(١) يخاطب المعتمد البريطاني.

(٢) الخفض سعة العيش. يريد أن كثرة المال مع غلاء الأسعار لا تغني شيئاً.

(٣) أم اللغات أي اللغة العربية. يشير إلى محاربة الاحتلال للغة العربية وجعل دارسة العلوم في أكثر المدارس باللغة الإنجليزية.

obeikandi.com

ووافيت والقطران في ظل راية ... فمازلت (بالسودان) حتى تمردا
فطاح كما طاحت (مصوع) بعده ... وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى
حجبت ضياء الصحف عن ظلماته ... ولم تستقل حتى حجبت (المؤيدا) [1]
وأودعت تقرير الوداع مغامزاً ... رأينا جفاء الطبع فيها مجسداً
غمرت بها دين النبي وإننا ... لنغضب إن أغضبت في القبر (أحمدا)

***

يناديك أين النابغون بعهدكم ... وأي بناء شامخ قد تجددا؟
فما عهد إسماعيل والعيش ضيق ... بأجدب من عهد لكم سال عسجدا
يناديك وليت الوزارة هيئة ... من الصمم لم تسمع لأصواتنا صدى
فليس بها عند التشاور من فتى ... أبي إذا ما أصدر الأمر أوردا
بربك ماذا صدنا ولوى بنا ... عن القصد إن كان السبيل ممهدا؟
أشرت برأي في كتابك لم يكن ... سديداً ولكن كان سهما مسددا
وحاولت إعطاء الغريب مكانة ... تجر علينا الويل والذل سرمدا
فيا ويل مصر يوم تشقى بندوة ... يبيت بها ذاك الغريب مسودا [2]

***

ألم يكفنا أنا سلبنا ضياعنا ... على حين لم نبلغ من الفطنة المدى
وزاحمنا في العيش كل ممارس ... خبير وكنا جاهلين ورقدا
وما الشركات السود في كل بلدة ... سوى شرك يلقي به من تصيدا

---

(١) حجبت المؤيد أي منعته من دخول السودان.

(٢) يشير إلى مشروع اللورد كرومر في إنشاء مجلس تشريع مختلط.

obeikandl.com

قصيدته في استقبال السير جورست

استقال اللورد كرومر أو أقيل من منصبه في أبريل سنة ١٩٠٧ على أثر حادثة دنشواي، وخلفه في منصبه السير الدون جورست، فاستقبله حافظ بقصيدة عبر فيها عن شكوى مصر من الاحتلال وآثامه، قال فيها في أسلوب التهكم والسخرية:

إذيقونا الرجاء فقد ظمئنا — -بعهد المصلحين- إلى الورود
ومنوا بالوجود فقد جلها — -بفضل وجودكم- معنى الوجود
إذا أعلولي الصياح فلا تلمنا — فإن الناس في جهد جهيد [١]
على قدر الأذى والظلم يعلو — صياح المشفقين من المزيد!
جراح في النفوس نغرن نغرا — وكن قد اندملن على صديد [٢]
إذا ما هاجهن أسى جديد — هتكن سرائر القلب الجليد

إلى أن قال:

فما جئنا نطاولكم بجاه — يطولكم ولا ركن شديد
ولكنا نطالبكم بحق — أضر بأهله نقض العهود

وعاد إلى ذكر حادثة دنشواي وكيف كانت مبعث اليقظة والحياة للحركة الوطنية:

رمانا صاحب التقرير ظلما — بكفران العوارف والكنود [٣]
وأقسم لا يجيب لنا نداء — ولو جئنا قرآن مجيد
وبشر أهل مصر باحتلال — يدوم عليهم أبد الأبيد
وأنبت في النفوس لكم جفاء — تعهده بمنهل الصدود
فأثمر وحشة بلغت مداها — وزكاها بأربعة شهود [٤]

---

(١) أعلولي أي علا.

(٢) نغر الجرح سال دمه، واندمل التأم.

(٣) صاحب التقرير هو اللورد كرومر.

(٤) يريد بالشهود الأربعة أعدموا في قضية دنشواي وهم أربعة.

obeikandl.com

قتيـــل الشـــمس أورثنـــا حيـــاة ... وأيقـــظ هـــاجع القـــوم الرقـــود [1]
فليـــت (كرومـــراً) قـــد دام فينـــا ... يطـــوق بالسلاســـل كـــل جيـــد
ويتحـــف (مصـــر) آنـــا بعـــد آن ... بمجلـــــود ومقتـــــول شـــــهيد
لينـــزع هـــذا الأكفـــان عنـــا ... ونبعـــث فـــي العـــوالم مـــن جديـــد

رثاؤه لمصطفى كامل

في يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ حين شيعت مصر جنازة مصطفى كامل وقف حافظ على قبره وأنشد قصيدته الرائعة في رثائه قال:

أيـا قبـر هـذا الضـيف آمـال أمـة ... فكبـر وهلـل والـق ضـيفك جاثيـاً
عزيـز علينـا أن نـرى فيـك مصـطفى ... شـهيد العـلا فـي زهـرة العمـر ذاويـا
أيـا قبـر لـو أنـا فقـدناه وحـده ... لكـان التأسـي مـن جـوي الحـزن شـافيا [3]
ولكـن فقـدنا كـل شـيء بفقـده ... وهيهـات أن يـأتي بـه الـدهر ثانيـا
فيـا سـائلي أيـن المـروءة والوفـا ... وأنـي الحجـا والـرأي؟ ويحـك هاهيـا!
هنيئـاً لهـم [2] فليـأمنوا كـل صـائح ... فقـد أسـكت الصـوت الـذي كـان عاليـا
ومـات الـذي أحيـا الشـعور وسـاقه ... إلـى المجـد فاسـتحيا النفـوس البواليـا

* * *

مـدحتك لمـا كنـت حيـا فلـم أجـد ... وإنـي أجيـد اليـوم فيـك المراثيـا
عليـك [4] وإلا مـا لـذا الحـزن شـاملاً ... وفيـك وإلا مـا لـذا الشـعب باكيـا

---

(١) قتيل الشمس هو الكابتن بول الضابط الإنجليزي الذي مات في حداثة دنشواي بضربة الشمس، يريد أن ما أصاب الناس من التنكيل بسبب هذا القتل جعلهم يثورون للمطالبة بالحرية.

(٢) يريد الإنجليز.

(٣) التأسي بمعنى الصبر.

(٤) عليك: أي عليك الحزن.

obeikandl.com

يمـــوت المـــداوي للنفـــوس ولا يـــرى لمـــا فيـــه مـــن داء النفـــوس مـــداويا
وكنـــا نيامـــاً حينمـــا كنـــت ســـاهداً [١] فأســـهدتنا حزنـــاً وأمســـيت غافيـــاً

***

شـــهيد العـــلا لا زال صـــوتك بيننـــا يـــرن كمـــا قـــد كـــان بـــالأمس داويـــا
يهيـــب بنـــا: هـــذا بنـــاء أقمتـــه فـــلا تهـــدموا بـــالله مـــا كنـــت بانيـــا
يصـــيح بنـــا: لا تشـــعروا النـــاس أننـــي قضـــيت وأن الحـــي قـــد بـــات خاليـــا
يناشـــــدنا بـــــالله ألا تفرقـــــوا وكونـــــوا رجـــــالاً لا تســـــروا الأعاديـــــا
فروحـــي مـــن هـــذا المقـــام مطلـــة تشـــارفكم [٢] عنـــي وإن كنـــت باليـــا
فـــلا تحزنوهـــا بـــالخلاف فـــإني أخـــاف علـــيكم فـــي الخـــلاف الـــدواهيا
عهـــدناك لا تبكـــي وتنكـــر أن يـــرى أو البـــأس فـــي بعـــض المـــواطن باكيـــا
فـــرخص لنـــا اليـــوم البكـــاء وفـــي غـــد ترانـــا كمـــا تهـــوي جبـــالا رواســـيا
فيـــا نيـــل إن لـــم تجـــر بعـــد وفاتـــه دمـــاً أحمـــراً لا كنـــت يـــا نيـــل جاريـــا
ويـا (مصـر) إن لـم تحفظـي ذكـر عهده إلـــى الحشـــر لا زال انحلالـــك باقيـــا
ويـا أهـل (مصـر) إن جهلـتم مصـابكم ثقـوا أن نجـم السـعد قـد غـار هاويـا

***

ثلاثـــون عامـــاً [٣] بـــل ثلاثـــون درة بجيـــد الليـــالي ســـاطعات زواهيـــا
ستشـــهد فـــي التـــاريخ أنـــك لـــم تكـــن فتـــى مفـــرداً بـــل كنـــت جيشـــاً مغازيـــا

---

(١) ساهدا: ساهرا.

(٢) تشارفكم أي تنظر إليكم من علو.

(٣) إشارة إلى عمر الفقيد وهو رقم تقريبي لأنه توفى الرابعة والثلاثون من عمره.

obeikandl.com

قصيدته في حفلة الأربعين

وله في رثاء مصطفى قصيدة أخرى ألقاها في حفلة الأربعين قال:

نثـــروا عليـــك نـــوادي الأزهـــار [١] ... وأتيـــت أنثـــر بيـــنهم أشـــعاري
زيـــن الشـــباب وزيـــن طـــلاب العـــلا ... هـــل أنـــت بـــالمهج الحزينـــة داري؟
غادرتنـــا والحادثـــات بمرصـــد ... والعـــيش عـــيش مذلـــة وإسـار
مـــا كـــان أحوجنـــا إليـــك إذا عـــدا ... عـــاد وصـــاح الصـــائحون: بـــدار
أيـــن الخطيـــب وأنـــي خـــلاب النهـــي؟ ... طـــال انتظـــار الســـمع والأبصـــار
بـــالله مالـــك لا تجيـــب مناديـــا ... مـــاذا أصـــابك يـــا أبـــا المغـــوار؟
قـم وامـح مـا خطـت يمـين (كرومـر) ... جهـــلاً بـــدين الواحـــد القهـــار
قـــد كنـــت تغضـــب للكنانـــة كلمـــا ... همـــت وهـــم رجاؤهـــا بعثـــار
غضـــب التقـــى لبـــه وكتابـــه ... أو غضـــبة (الفـــاروق للمختـــار) [٢]
قد ضـاف جسمك عن مداك فلم يطـق ... صـــبراً عليـــك وأ،ت شـــعلة نـــار
أودى بـــه ذاك الجهـــاد وهـــده ... عـــزم يهـــد جلائـــل الأخطـــار
لعبـــت يمينـــك بـــاليراع فـــأعجزت ... لعـــب الفـــوارس بالقنـــا الخطـــار [٣]
وجريـــت للعليـــاء تبغـــي شـــأوها ... بـــدرت إليـــه غوائـــل الأقـــدار؟
عـــز القـــرار علـــى ليلـــة نعيـــه ... وشـــهدت موكبـــه فقـــر قـــراري [٤]
وتســـابقت فيـــه النعـــاة فطـــائر ... بالكهربـــاء وطـــائر ببخـــار
شـــاهدت يـــوم الحشـــر يـــوم وفاتـــه ... وعلمـــت منـــه مراتـــب الأقـــدار
ورأيـــت كـــي فتفـــي الشـــعوب رجالهـــا ... حـــق الـــولاء وواجـــب الإكبـــار
تســـعون ألفـــا حـــول نعشـــك خشـــع ... يمشـــون تحـــت (لوائـــك) الســـيار
خطـــوا بـــأدمعهم علـــى وجـــه الثـــرى ... للحـــزن أســـطاراً علـــى أســـطار
آنـــا يوالـــون الضـــجيج كـــأنهم ... ركـــب الحجـــيج بكعبـــة الـــزوار
وتخـــالهم آنـــا لفـــرط خشـــوعهم ... عنـــد المصـــلي ينصـــتون لقـــارى

---

(١) نوادي الأزهاب: أي الرطبة المبللة بالندى.

(٢) الفارون: عمر بن الخطاب، والمختار: النبي ﷺ.

(٣) القنا: الرماح.

(٤) أي استقرت نفسه بعد أن شهد وفاة الأمة للفقيد في موكب الجنازة.

obeikandi.com

غلب الخشوع عليهم فدموعهم تجري بلا كلح [1] ولا استتثار
قد كنت تحت دموعهم وزفيرهم ما بين سيل دافق وشرار
أعسى فيأخذوني اللهيب فأنثني فيصدني متدفق التيار
لو لم ألذ بالنعش أو بظلاله لقضيت بين مراجل وبخار

***

كم ذات خدر يوم طاف بك الردي هتكت عليك حرائر الأستار
سفرت تودع أمة محمولة في النعش لا خبراً من الأخبار
أمنت عيون الناظرين فمزقت وجه الخمار فلم تلذ بخمار [2]
قد قام ما بين العيون وبينها ستر من الأحزان والأكدار

***

أدرجت في العلم الذي أصفيته منك الوداد فكان خير شعار
علمان حاشية من فوق الرؤس كلاهما في طية سلر من الأسرار
ناداهما داعي الفراق فأمسيا يتعانقان على شفير هاري
تالله ما جزع المحب ولا بكى لنوي مروعة وبعد مزار
جزع (الهلال) عليك يوم تركته ما بين حر أسي وحر أوار [4]
متلفتاً متحيراً متخيرا رجلا يناضل عنه يوم فخار
إن الثلاثين التي بك فاخرت باتت تقاس بأطول الأعمار
ضمت إلى التاريخ بضع صحائف بيضاء مثل صحائف الأبرار
شبهتهن بنقطة عطرية وسعت محصل روضة معطرا [1]
خلفتها كالمشق يحذو حذوها راجي الوصول ومقتفي الآثار
ماذا على الساري وهن [3] منائر لو سار بين مجاهل وقفار

---

(١) الكلح العبوس أي تجري الدموع بطبيعتها بلا عبوس.

(٢) الخمار: الحجاب.

(٣) هن إشارى إلى الثلاثين عاما: أي ماذا على الساري في المجاهل والقفار إذا اهتدى بنور هذا الأعلام.

(٤) الأسى: الحزن؛ والأوار: الظمأ والتعطش، أي التعطش إلى الفقيد.

obeikandi.com

مـــا زلـــت تختـــار المواقـــف وعـــرة ... حتـــى وقفـــت لـــذلك الجبـــار [٣]
وهـــدمت ســـوراً قـــد أجـــاء بنـــاءه ... فرعـــون [٤] ذو الأوتـــاد والأنهـــار
ووصـــلت بـــين شـــكاتنا ومشـــايخ ... فـــي (البرلمـــان) أجلـــة أخيـــار
كشـفوا العطـاء عـن العيـون فأبصـروا ... مـــا فـــي الكنانـــة مـــن أذي وضـــرار
نبـــذوا كـــلام (اللـــورد) حـــين تبينـــوا ... حنـــق المغـــيظ ولهجـــة الثرثـــار
ورمـــاهم بمجلـــدين [٢] رموهمـــا ... فـــي رتبـــة الأصـــفار لا الأســـفار

***

واهـــا علـــى تلـــك المواقـــف إنهـــا ... كانـــت مواقـــف ليـــث غـــاب ضـــاري
لـــم يلـــوه عنهـــا الوعيـــد ولا ثنـــي ... مـــن عزمـــه قـــول المريـــب: حـــذار
فاهنـــأ بمنزلـــك الجديـــد ونـــم بـــه ... فـــي غبطـــة وانعـــم بخيـــر جـــوار
واســـتقبل الأجـــر الكبيـــر جـــزاء مـــا ... ضـــحيت للأوطـــان مـــن أوطـــار
نعـــم الجـــزاء ونعـــم مـــا بلغتـــه ... فـــي منزليـــك [٥] ونعـــم عقبـــي الـــدار

قصيدته في الذكرى الأولى للفقيد

وله قصيدة ثالثة ألقاها عند قبره يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٩ في الاحتفال بإحياء ذاكره الأولى، وهي من أبلغ روائع الشعر العربي، قال:

---

(١) الروضة المعاشر: هي الكثيرة الأزهار والرياحين.

(٢) يريد بالمجلدين كتاب مصر الحديثة للورد كرومر.

(٣) اللورد كرومر.

(٤) شبه كرومر بفرعون.

(٥) أي الدنيا والآخرة.

obeikandl.com

طوفـوا بأركـان هـذا القبـر واسـتلموا [1] واقضــوا هنــاك مــا تقضــي بــه الــذمم
هنـــا جنـــان تعـــالى الله بارئـــه ضـــاقت بآمالـــه الأقـــدار والهمـــم
هنـــا فـــم وبنـــان لاح بينهـــا فـــي الشـــرق فجـــر تحيـــى ضـــوءه الأمـــم
هنـــا فـــم وبنـــان طالمـــا نثـــرا نثـــراً تســـير بـــه الأمثـــال والحكـــم
هنـا الكمـي [2] الـذي شـادت عزائمـه لطالـــب الحـــق ركنـــا لـــيس ينهـــدم
هنـــا الشـــهيد هنـــا رب اللـــواء هنـــا حـامي الـذمار هنـا الشـهم الـذي علمـوا

***

يـــا أيهـــا النـــائم الهـــاني بمضـــجعه ليهنـــك النـــوم لاهـــم ولا ســـقم
باتـــت تســـائلنا فـــي كـــل نازلـــة عنـــك المنـــابر والقرطـــاس والقلـــم
تركـــت فينـــا فراغـــا لـــيس يشـــغله إلا أبـــي ذكـــر القلـــب مضـــطرم
منفـــر النـــوم [3] ســـباق لغايتـــه آثـــاره عمـــم آمالـــه أمـــم

***

إنـــي أري وفـــؤادي لـــيس يكـــذبني روحـــا يحـــف بهـــا الإكبـــار والعظـــم
أرى جـــلالاً أرى نـــوراً أرى ملكـــا أرى محيـــاً يحيينـــا ويبتســـم
الله أكبـــر هـــذا الوجـــه أعرفـــه هـ هـــذا فتـــى النيـــل هـــذا المفـــرد العلـــم
غضـــوا العيـــون وحيـــوه تحيتـــه مـــن القلـــوب إذا لـــم تســـعد [4] الكلـــم
وأقســـموا أن تـــذودوا عـــن مبادئـــه فـــنحن فـــي موقـــف يحلـــو بـــه القســـم

***

---

(١) استلم القبر: قبله أو لمسه بيده.

(٢) الشجاع.

(٣) منفر النوم أي مسهد.

(٤) أسعده: أعانه.

obeikandl.com

لبيك نحن الأولى حركت أنفسهم ... لما سكنت ولما غالك العدم
جئنا نؤدي حساباً عن مواقفنا ... ونستمد ونستعدي [١] ونحتكم
قبل اسكتوا فسكتنا ثم أنطقنا ... عف الجفاة [٢] وأعلى صوتنا الألم
قد أتهمنا ولما نطلب جللاً ... إن الضعيف على الحالين متهم
قالوا لقد ظلموا بالحق أنفسهم ... والله يعلم أن الظالمين هم
إذا سكتنا تناجوا: تكل عادتهم ... إن نطقنا تنادوا: فتنة عمم

***

قد مر عام بنا والأمر يحزبنا [٣] ... آنا وآونة ننتابنا النقم
فالناس في شدة والدهر في كلب [٤] ... والعيش قد حار فيه الحاذق الفهم
وللسياسة فيناكل آونة ... لون جديد وعهد ليس يحترم
بينا نرى جمرها تخشى ملامسه ... إذا به عند لمس المصطلى فحم
تصغي لأصواتنا طوراً لتخدعنا ... وتارة يزدهيها الكبر والصمم
فمن ملاينة استارها خدع ... إلى مصالبة استارها وهم

***

ماذا يريدون [٥]؟ قرت عيونهم ... إن الكنانة لا يطوي لها علم
كم أمة رغبت فيها فما رسخت ... لها – على حولها [٦] –في ارضها قدم
ما كان ربك رب البيت تاركها ... وهي التي بحبال منه تعتصم

***

(١) نستمد: نطلب المدد ونستعدي: نستنصر.

(٢) يريد بالجفاة المحتلين الجناة.

(٣) حزبه الأمر: اشتد عليه.

(٤) الكلب الشدة.

(٥) يريد المحتلين.

(٦) الحول: القوة.

لبيك إنا على ما كنت تعهده ... حتى نسود وحتى تشهد الأمم
فيعلم النيل أنا خير من وردوا ... ويستطيل اختيالاً ذلك الهرم

إلى أن قال:

يا أيها النشء سيروا في طريقته ... وثابروا: رضى الأعداء أو نقموا
فكلكم (مصطفى) لو سار سيرته ... وكلكم (كامل) لو جازه [٢] السأم
قد كان لا وانيا يوما ولا وكلا [١] ... يستقبل الخطب بساماً ويقتحم
وأنت يا قبر قد جئنا على ظمأ ... فجد لنا بجواب جادك الديم [٣]
أين الشباب الذي أودعت نضرته ... أين الخلال- رعاك الله- والشيم؟
وما صنعت بآمال لنا طويت ... يا قبر فيك وعفى رمسها القدم؟
ألا جواب يروي من جوانحنا؟ ... ما للقبور إذا ما نوديت تجم [٤]؟
نم أنت يكفيك ما عانيت من تعب ... فنحن في يقظة والشمل ملتئم
هذا (لواؤك خفاق يظللنا ... وذاك شخصك في الأكباد مرتسم

تحية العام الهجري

أعد الشباب في سنة ١٩٠٩ (١٣٢٧ هجرية) احتفالا كبيراً بالعام الهجري الجديد تولى الطلبة تنظيمه برعاية نادي المدارس العليا، وكان احتفالا رائعا أقيم بدار التمثل العربي مساء الجمعية غاية ذي الحجة سنة ١٣٢٦ (٢٢ يناير سنة ١٩٠٩) برئاسة أحمد بك لطفي، وألقى فيه حافظ قصيدته المشهورة في تحية العام الجديد. قال في مطلعها:

أطل على الأكوان والخلق تنظر ... هلال رآه المسلمون فكبروا
تجلي لهم صورة زاد حسنها ... على الدهر حسنا أنها تتكرر

---

(١) الوكل: العاجز الذي يكل الأمر إلى غيره.

(٢) جازه: أي جاوزه.

(٣) الديم جمع ديمة السحاب.

(٤) وجم يجم سكت عن الكلام.

obeikandl.com

وبشـــرهم مـــن وجهـــه وجبينـــه ... وغرفتـــــه والنـــــاطرين مبشـــــر
وأذكـــرهم يومـــا [1] اغـــر محجـــلا ... بـــه تـــوج التـــاريخ والســـعد مســـفر
وهـــاجر فيـــه خيـــر داع إلـــى الهـــدي ... يحـــف بـــه مـــن قـــوة الله عســـكر
يماشـــيه جبريـــل وتســـعى وراءه ... ملائكـــة ترعـــى خطـــاه وتخفـــر
بيســـراه برهـــان مـــن الله ســـاطع ... هـــدى وبينمـــا الكتـــاب المطهـــر
فكـــان علـــى أبـــواب (مكـــة) ركبـــه ... وفـــي (يثـــرب) [2] أنـــواره تتفجـــر
مضـــى العـــام ميمـــون الشـــهور مباركـــا ... تعـــــدد آثـــــار لـــــه وتســـــطر
مضـــى غيـــر مـــذموم فـــإن يـــذكروا لـــه ... هنـــات فطبـــع الـــدهر يصـــفو ويكـــدر
وإن قيـــل أودي بـــالألوف أجـــابهم ... مجيـــب لقـــد أحيـــا الملايـــين فـــانظروا
إذ قـــيس إحســـان امـــرئ بإســـاءة ... فـــأربي عليهـــا فالإســـاءة تغفـــر
ففيـــه أقـــام النـــائمون وقـــد أتـــت ... علـــيهم كـــآل الكهـــف فـــي النـــوم أعصـــر
وفـــي عـــالم الإســـلام فـــي كـــل بقعـــة ... لـــــه أثـــــر بـــــاق وذكـــــر معطـــــر

ويعد أن سرد الحوادث في مختلف البلاد الإسلامية طوال العام المصرم، عرج على الحركة الوطنية في مصر فحياها أحسن تحية وكان ترجمان الشعر والأدب في تمجيدها وتأييدها، قال:

وفيـــه ســـرت فـــي مصـــر روح جديـــدة ... مباركـــــة مـــــن غيـــــر تتشـــــعر
خبـــت زمنـــا حتـــى توهمـــت أنهـــا ... تجافـــت عـــن الإيـــراء لـــولا (كرومـــر) [3]
تصـــدى فأوراهـــا وهيهـــات أن يـــرى ... ســـبيلا إلـــى إخمادهـــا وهـــي تزفـــر
مضـــى زمـــن التنـــويم يـــا نيـــل وانقضـــى ... ففـــي مصـــر إيقـــاظ علـــى مصـــر تســـهر
وقـــد كـــان "مـــرفين" الـــدهاء مخـــدراً ... فأصـــــبح فـــــي أعصـــــابنا يتخـــــدر
شـــعرنا بحاجـــات اليـــاة فـــإن ونـــت ... عزائمنـــا عـــن نيلهـــا كيـــف نعـــذر؟
شـــعرنا وأحســـنا وباتـــت نفوســـنا ... مـــن العـــيش إلا فـــي ذرا العـــز تســـحر
إذا الله أحيـــا أمـــة لـــن يردهـــا ... إلـــى المـــوت قهـــار ولا متجبـــر

---

(١) يريد يوم هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة.

(٢) المدنية المنورة.

(٣) خبت: خمدت، وتجافت: تباعدت، وإيراء النار، إشعالها. وكرومر هو المعتمد البريطاني في ذلك الحين والحاكم المطلق في مصر وقتئذ، يريد أن فظائع كرومر قد اشعلت روح الكراهية للاحتلال.

وحيا الشباب بقوله:

رجـــال الغـــد المـــأمول إنـــا بحاجـــة إلـــى قـــادة تبنـــي وشـــعب يعمـــر
رجـــال الغـــد المـــأمول إنـــا بحاجـــة إلـــى مصـــلح يـــدعو وداع يـــذكر
رجـــال الغـــد المـــأمول إنـــا بحاجـــة إلـــى عـــالم يـــدري وعلـــم يقـــرر
رجـــال الغـــد المـــأمول إنـــا بحاجـــة إلـــى حكمـــة تملـــي وكـــف تحـــرر
رجـــال الغـــد المـــأمول إنـــا بحاجـــة إلـــيكم فســـدوا الـــنقص فينـــا وشـــمروا
رجـــال الغـــد المـــأمول إن بلادكـــم يمـــر مـــرور الأمـــس والعـــيش أغبـــر
رجـال الغـد المـأمول لا تتركـوا غـدا تناشـــــدكم بـــــالله أن تتـــــذكروا
علـــيكم حقـــوق للـــبلاد أجلهـــا تعهـــد روض العلـــم فـــالروض مقفـــر
قصـارى منـي أوطـانكم أن تـرى لكـم يـــدا تبنتنـــي مجـــداً ورأســـاًيفكر
فكونـــوا رجـــالا عـــاملين أعـــزة وصـــونوا حمـــى أوطـــانكم وتحـــرروا

وعرج على حركة المطالبة بالدستور، قال:

ويـا طلبـي (الدسـتور) لا تسـكنوا ولا تبيتـــوا علـــى يـــأس ولا تتضـــجروا
أعـدوا لـه صـدر المكـان فـإنني أراه علـــى أبـــوابكم يتخطـــر
ولا تنطقـــوا إلا صـــوابا فـــإنني أخـــاف علـــيكم أن يقـــال تهـــوروا
فمـا ضـاع حـق لـم يـنم عنـه أهلـه ولا نالـــه فـــي العـــالمين مقصـــر
لقـد ظفـر الأتـراك عـدلا بسـؤلهم [1] ونحـــن علـــى الآثـــار لا شـــك نظفـــر
هـــم لهـــم العـــام القـــديم مقـــدر ونحـــن لنـــا العـــام الجديـــد مقـــدر

وقد قوبلت القصيدة بالتصفيق والإعجاب والحماسة البالغة من الحاضرين، وكان إلقاؤه رائعاً أخاذا، ولبث في إلقائه ساعة من الزمان كاملة.

وفي ١٢ يناير سنة ١٩١٠ أقام الشباب أيضا احتفالا فخما بعيد رأس السنة الهجرية (١٣٢٨) بمسرح (البيلوت باسك) بشارع عماد الدين، وألقى فيه حافظ قصيدة من أبلغ شعره، قال في مطلعها يحيى هلال العام الجديد:

---

(١) يريد إعلان الدستور في تركيا عام ١٩٠٨.

obeikandl.com

لـــي فيــك حـــين بـــدا ســناك وأشــرقا أمـــــــل ســــــألت الله أن يتحققـــــا

ثم ذكر العام الذي مضى وما أصاب مصر فيه من كوارث، قال:

اشـــرق علينـــا بالســـعود ولا تكـــن كأخيـــك مشـــئوم المنـــازل اخرقـــا

إلى أن قال ينعي حرية الصحافة وذكر ما أصابها من الضغط والاضطهاد.

ورمـــي علـــى أرض الكنانـــة جرمـــه بالنـــــازلات الســـود حتـــى ارهقـــا
حصـــدت مناجلـــه غـــراس رجائنـــا ولـــو أنهـــا أبقـــت عليـــه لأورقـــا
فتقيـــدت فيـــه (الصـــحافة) عنـــوة ومشـــى الهـــوى بـــين الرعيـــة مطلقـــا
وأتـــى يســـاوم فـــي (القنـــاة) خديعـــة ولـــو أنهـــا تمـــت لـــتم بهـــا الشـــقا [٣]
إن البليـــــة أن تبـــــاع وتشـــــتري مصـــــر ومـــــا فيهـــــا وأن لا تنطقـــــا
كانـــت تواســـينا علـــى آلامنـــا صـــحف إذا نـــزل الـــبلاء وأطبقـــا
فـإذا دعـوى الـدمع فاستعصـى بكـت عنـــا اســـى حتـــى تغـــص وتشـــرقا
كانـــت لنـــا يـــوم الشـــدائد اســـهما نرمـــي بهـــا وســـوابقا [٤] يـــوم اللقـــا
كانـــت صـــماما للنفـــوس إذا علـــت فيهـــا الهمـــوم وأوشـــكت أن تزهقـــا
كـم نفسـت عـن صـدر حـر واجـد [١] لـــو لا الصـــمام مـــن الأســـى لتمزقـــا
مـا لـي أنـوح علـى الصـحافة جازعـا مـــاذا الـــم بهـــا ومـــاذا احـــدقا
قصـــوا حواشـــيها وطنـــوا أنهـــم امنـــوا صـــواعقها فكانـــت أصـــعقا
وأتـــوا بحـــاذقهم [٢] يكيـــد لهـــا بهـــا يثنـــي عزائمهـــا فكانـــت أحـــذقا

---

(١) الواجد: الحزين.

(٢) يريد بطرس غالي رئيس الوزراء، ولكن الحق أن تبعة ذلك يتحملها الوزراء جميعاً لا بطرس غالي وحده.

(٣) يشير إلى مشروع مد امتياز قناة السويس، وقد ظهر في أواخر سنة ١٩٠٩ ورفضته الجمعية العمومية، في أبريل سنة ١٩١٠.

(٤) السوابق من صفات الخيل، أي كانت لنا عدة في الجهاد.

obeikandi.com

وقال يخاطب الشباب وهيب بهم أن يعملوا ليردوا إلى مصر مجدها واستقلالها:

أهـــلا بنابتـــة الـــبلاد ومرحبـــا ... جـــددتم العهـــد الـــذي قـــد أخلقهـــا
لا تيأســـوا أن تســـتردوا مجـــدكم ... فلـــرب مغلـــوب هـــوى ثـــم أرتقـــى
مـــدت لـــه الآمـــال مـــن أفلاكهـــا ... خـــيط الرجـــاء إلـــى العـــلا فتســـلقا
فتجشـــموا للمجـــد كـــل عظيمـــة ... إنـــي رأيـــت المجـــد صـــعب المرتقـــى
مـن رام وصـل الشـمس حـاك خيوطهـا ... ســـــبباً إلـــــى آمالـــــه وتعلقـــــا

***

عـار علـى ابـن النيـل سـباق الـورى ... مهمـــا تقلـــب دهـــره أن يســـبقا
أو كلمـــا قـــالوا تجمـــع شـــملهم ... لعـــب الشـــقاق بجمعنـــا فتفرقـــا
فتـــدفقوا حججـــا وحوطـــوا نـــيلكم ... فلكـــم أفـــاض علـــيكم وتـــدفقا
حملـــوا علينـــا بالزمـــان وصـــرفه ... فتـــأنقوا فـــي ســـلبنا وتأنقـــا [١]
هـــزوا مغاربهـــا فهابـــت بأســـهم ... يـــا ويلكـــم إن لـــم تهـــزوا المشـــرقا [٢]
فتعلمـــوا فـــالعلم مفتـــاح العـــلا ... لمـــي بـــق بابـــا للســـعادة مغلقـــا
ثـــم اســـتمدوا منـــه كـــل قـــواكم ... إن الـــــوقى بكـــــل أرض يتقـــــي
وابنـــوا حـــوالي حوضـــكم مـــن يقظـــة ... ســـوراً وخطـــوا مـــن حـــذار خنـــدقا
وزنـــوا الكـــلام وســـددوه فـــإنهم ... خبـــأوا لكـــم فـــي كـــل حـــرف مزلقـــا
وامشـــوا علـــى حـــذر فـــإن طـــريقكم ... وعـــر أطـــاف بـــه الهـــلاك وحلقـــا
نصـــبوا لكـــم فيـــه الفخـــاخ وأرصـــدوا ... للســـالكين بكـــل فـــج موبقـــا [٣]
المـــوت فـــي غشـــيانه وطروقـــه ... والمـــوت كـــل المـــوت ألا يطرقـــا [٤]
فتحينـــوا فـــرص الحيـــاة كثيـــرة ... وتعجلوهـــــا بـــــالعزائم والـــــرق

---

(١) أي حاربنا المحتلون بأحداث الزمان ونوائبه. وتأنق في الأمر: أي بالغ فيه.

(٢) يشير إلى الإنجليز، أي أنهم مدوا سلطانهم في دول الغرب. ويدعو المصريين إلى أن يجعلوا لمصر هذه المكانة في الشرق.

(٣) الفج: الطريق، الموبق: الهلاك.

(٤) أي إذا كان في الإقدام موت فإن في الاستسلام موتاً أكبر.

obeikandi.com

أو فاخلقوهـــا قـــادرين فإنمـــا فـــرص الحيـــاة خليقـــة أن تخلقـــا

مسألة قناة السويس

في أواخر سنة ١٩٠٩ وأوائل سنة ١٩١٠ شغلت الرأي العام مسألة كبرى تتصل بحياة البلاد الاقتصادية والسياسية، وهي مشروع مد الامتياز الممنوح لشركة قناة السويس أربعين عاماً أخرى، وقد أثار هذا المشروع سخط الأمة واحتجاجها وطالبت بوقفه وبعرضه على "الجمعية العمومية" قبل البت فيه.

حركت هذه المسألة الهامة روح الشعر في نفس حافظ، فنظم في نوفمبر سنة ١٩٠٩ قصيد من بليغ شعره القومي، وصف فيها الحالة السيئة التي وصلت إليها البلاد، وأيد الحركة الوطنية في مطالبها، وعبر أصدق تعبير عن آلامها وآمالها، قال في مطلعها:

لقـد نصـل الـدجى فمتـى تنـام أهـم ذا نومـك أم هيـام [١]

إلى أن قال:

أيجمـل بالأديـب أديـب مصـر بكـاء الطفـل أرهقـه الفطـام
ويصـرفه الهـوى عـن ذكـر مصـر ومصـر فـي يـد البـاغي تضـام
عـدمت يراعتـي إن كـان مـا بـي هـوى بـين الضـلوع لـه ضـرام
ومـا أنـا والغـرام وشـاب رأسـي وغـال شـبابي الخطـب الجسـام
وربـاني الـذي ربـي (لبيـداً) فعلمنـي الـذي جهـل الأنـام [٢]
لعمـرك جلالهـا أيـام كانـت ومـالي دونهـا أمـل يـرام
ذكـرت جلالهـا أيـام كانـت تصـول بهـا الفراعنـة العظـام
وأيـام الرجـال بهـا رجـال وأيـام الزمـان لهـا غـلام
فـأقلق مضـجعي مـا بـات فيهـا وباتـت مصـر فيـه فهـل ألـم؟

---

(١) الدجى: ظلال الليل.

(٢) لبيد، هو الشاعر العربي صاحب المعلقة التي أولها: عفت الديار محلها فرسومها

وأهاب بالشعب أن يدع التواكل والتخاذل والانقسام قال:

أرى شـــعبا بمدرجـــة العـــوادي ... تمخـــخ عظمـــه داء عقـــام [1]
إذا مـــا مـــر بالبأســـاء عـــام ... أطـــل عليـــه بالبأســـاء عـــام
ســـرى داء التواكـــل فيـــه حتـــى ... تخطـــف رزقـــه ذاك الزحـــام [2]
قـد استعصـى علـى الحكمـاء منـا ... كمـا استعصـى علـى الطـب الجـذام
هـــلاك الفـــرد منشـــؤه تـــوان ... ومـــوت الشـــعب منشـــؤه انقســـام
وإنـــا قـــد ونينـــا وانقســـمنا ... فـــلا ســـعي هنـــاك ولا وئـــام
فســـاء مقامنـــا فـــي أرض مصـــر ... وطـــاب لغيرنـــا فيهـــا المقـــام
فـــلا عجـــب إذا ملكـــت علينـــا ... مـــذاهبنا وأكثرنـــا نيـــام

وناجى الأمير حسين كامل وكان رئيساً لمجلس شوري القوانين أن يبث روح الحياة والتضامن في نفوس أعضاء مجلس الشورى والجمعية العمومية، وناشدهم ألا يثقوا بوعود الاحتلال، قال:

(حســين. حســين) أنــت لنــا فنبــه ... رجـــالا عـــن طلـــب الحـــق نـــاموا
وكـــن- بأبيـــك- لابـــن أخيـــك عونـــا ... فأنـــت بكفـــه نعـــم الحســـام
أفـــض فـــي قاعـــة الشـــورى وئامـــا ... فقـــد أودي بنـــا وبهـــا الخصـــام
وعلمهـــم مصـــادمة الأعـــادي ... فمثلـــك لا يروعـــه الصـــدام
ففـــي (حـــزب اليمـــين) لـــديك قـــوم ... وإن قلـــوا فـــإنهم كـــرام
وفـــي (حـــزب الشـــمال) لـــديك أســـد ... كمـــاة لا يطيـــب لهـــا انهـــزام
فكونـــوا للـــبلاد ولا يفـــتكم ... مـــن النهـــزات والفـــرص اغتنـــام
فمـــا ســـادوا بمعجـــزة علينـــا ... ولكـــن فـــي صـــفوفهم انضـــمام
فـــلا تثقـــوا بوعـــد القـــوم يومـــا ... فـــإن ســـحاب ساســـتهم جهـــام [3]

---

(١) المدرجة: الطريق، والعوادي: النوائب. وتمخخ العظم: إذا أخرج مخه.

(٢) أي مزاحمة الأجانب للمصريين

(٣) السحاب الجهام: الذي لا ماء فيه.

وخـــــافوهم إذا لانـــــوا فـــــإني أرى الســـواس لـــيس لهـــم ذمـــام [1]
فكـــم ضـــحك (العميـــد) علـــى لحانـــا وغـــــر ســـــراتنا منـــــه ابتســـــام

ونادى بالدستور وندد بمشروع مد امتياز القناة،قال:

لـــــيس العلـــــم يمســـــكنا وحيـــــدا إذا لـــــم ينصـــــر العلـــــم اعتـــــزام
وإن لـــــم يـــــدرك (الدســـــتور) مصـــــراً فمـــــا لحياتهـــــا ابـــــدا قـــــوام
حمونـــــا ورد النيـــــل عـــــذبا وقـــــالوا: أنـــــه مـــــوت زؤام
ومـــــا المـــــوت الـــــزؤام إذا عقلنـــــا ســـــوى (الشـــــركات) حـــــل لهـــــا الحـــــرام
لقـــــد ســـــعدت غفلتنـــــا فراحـــــت بثروتنـــــا وأولهـــــا (التـــــرام)

***

فيـــا ويـــل (القنـــاة) اذل احتواهـــا بنـــو (التـــاميز) وانحســـر اللثـــام
لقـــد بقيـــت مـــن الـــدنيا حطامـــاً بأيـــدينا وقـــد عـــز الحطـــام
وقـــد كنـــا جعلناهـــا زمامـــا فـــوالهفي إذا قطـــع الزمـــام!

***

فيـــا (قصـــر الـــدبارة) لســـت أدري احـــرب فـــي رابـــك أم ســـلام؟
أجبنـــا هـــل يـــراد بنـــا وراء فنقضـــي أم يـــراد بنـــا أمـــام؟
ويـــا (حـــزب اليمـــين) إليـــك عنـــا لقـــد طاشـــت نبالـــك والســـهام
ويـــا(حزب الشـــمال) عليـــك منـــا ومـــن ابنـــاه نجـــدتك الســـلام

---

(١) الذمام: الذمة والعهد.

obeikandl.com

وقد اضطرت الوزارة تحت ضغط الرأي العام إلى عرض المشروع على الجمعية العمومية التي قررت رفضه وبذلك حبط المشروع.

تنديده بالكولونل روزفلت

جاء الكولونل تيودور روزفلت الرئيس الأسبق لجمهورية الولايات المتحدة إلى مصر عن طريق السودان في مارس سنة ١٩١٠، وألقى بالخرطوم خطبة سياسية مجد فيها الاحتلال البريطاني، ودعا إلى الخضوع لحكمه، ولما وصل إلى القاهرة ألفى بالجامعة المصرية خطبة أخرى أشد وطأة من خطبته، بالخرطوم، وقد أثارت خطبتاه احتجاج الرأي العام، وشارك حافظ الأمة في سخطها على روزفلت، ونظم قصيدة عصماء لامه فيها على إطرائه الاحتلال، نشرها قبيل إلقاء خطبته الثانية بالقاهرة، قال.

أي خطيب الدنيا شنف ... سمع مصر بقولك المأثور
إنما شوقها لقولك يا(روز ... فلت) شوق الأيسر للتحرير
قف غداً أيها الرئيس وعلم ... أهل مصر حرية التعبير
وأخبر الناس كيف سدتم على النا ... س وجئتم بمعجزات الدهور
وملكتم أعنة الريح والما ... ء ودستهم على قارب العصور
قف وعدد مآثر العلم واذكر ... نعم الله ذكر عبد شكور
وإذا ما ذكرت أنعمه الكبـ ... ري فلا تنس نعمة (الدستور)

***

يا نصير الضعيف مالك تطري ... خطة القوم [1] بعد ذاك النكير
لم تطيقوا جوارهم بل اقمتم ... في حماكم من دونهم ألف سور
أنت تطريهم وتثني عليهم ... نائباً آمناً وراء البحور
ليت شعري أكنت تدعو إليهم ... يوم كانوا على تخوم الثغور

---

(١) يقصد الإنجليز.

obeikandl.com

يـــوم كـــانوا فـــذي بعـــين (نيويـــور ... ك) وداء مســـتحكماً فـــي الصـــدور
يـــوم نـــادى (واســـنجتون) فلبـــا ... هـ مـــن الغيـــل كـــل ليـــث هصـــور [٣]
يـــوم ســـجلتم علـــى صـــفحات الدهـــ ... ر تـــاريخ مجـــدكم بـــالنور
ووثبـــتم إلـــى الحيـــاة ثوبـــا ... ونفضـــتم عـــنكم غبـــار القبـــور
إنمـــا النيـــل والمسيســـيبي [١] صـــنوا ... ن همـــا حليتـــان للمعمـــور
وعجيـــب أن يفـــوز هـــذا بـــإطلا ... ق وهـــذا فـــي ذلـــة المأســـور
يـــا نصـــير الضـــعيف حبـــب إلـــيهم ... هجـــر مصـــر [٤] تفـــز بـــأجر كبيـــر
فعلـــيهم أن يهجـــروا وعلـــى المصـــ ... ري ذكـــر المتـــيم المهجـــور

رثاؤه لمحمد فريد

نظم حافظ في رثاء محمد فريد قصيدة من غرر شعره ألقاها بصوته الجهوري في حفلة التأبين التي أقامها الحزب الوطني يوم الأربعين لوفاته (١٩ ديسمبر سنة ١٩١٩)، فهزت مشاعر السامعين والمواطنين لما حوته من المعاني الرائعة والتقدير البالغ للزعيم الراحل، قال:

مـــن ليـــوم نحـــن فيـــه مـــن لغـــد؟ ... مـــات ذو العزمـــة والـــرأي الأســـد
حـــل (بالجمعـــة) حـــزن وأســـى ... ومشـــى الوجـــد إلـــى (يـــوم الأحـــد) [٥]
وبـــدا شـــعري علـــى قرطاســـه ... لوعـــة ســـالت علـــى دمـــع جمـــد

***

أيهـــا النيـــل لقـــد جـــل الأســـى ... كـــن مـــداداً لـــي إذا الـــدمع نفـــد
واذبلـــى يـــا زهـــرة الـــروض ولا ... تبســـمي للطـــل فـــالعيش نكـــد

---

(١) هو النهر المشهور بأمريكا.

(٣) الغيل: موضع الأسد.

(٤) أي الجلاء عنها.

(٥) كني بيومي الجمعة والأحد عن المسلمين والمسيحيين.

obeikandl.com

والـــــــزم النـــــــوح أيـــــــاطير ولا تبـــتهج بالشـــدو فالشـــدو حـــدد [١]
فلقـــد ولـــي (فريـــد) وانطـــوى ركـــن مصـــر وفتاهـــا والســـند

***

خالـــد الآثـــار لا تخـــش البلـــى لـــيس يبلـــي مـــن لـــه ذكـــر خلـــد
زرت (بـــرلين) فنـــادى ســـمتها نزلـــت شـــمس الضـــحى بـــرج الأســـد
واختفـــت شمســـك فيـــه وكـــذا تختفـــي فـــي الغـــرب أقمـــار الأبـــد [٢]

***

يـــا غريـــب الـــدار والقبـــر ويـــا ســـلوة النيـــل إذا مـــا الخطـــب جـــد
وحســـاماً فـــل حديـــه الـــردى وشـــهابا ضـــاء وهنـــا وخمـــد
قـــل (لصـــب النيـــل) [٣] إن لاقيتـــه فـــي جـــوار الـــدائم الفـــرد الصـــمد
إن مصـــراً لا تنـــي عـــن قصـــدها رغـــم مـــا تلقـــي وإن طـــال الأمـــد
جئـــت عنهـــا أحمـــل البشـــرى إلـــى (أول البـــانين) [٤] فـــي هـــذا البلـــد
فاســـترح وهنـــأ ونـــم فـــي غبطـــة قـــد بـــذرت الحـــب والشـــعب حصـــد [٥]

***

(١) الحدد: الحرام الذي لا يحل أن يرتكب.

(٢) كانت وفاة الفقيد في برلين يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩.

(٣)

(٤) يريد مصطفى كامل.

(٥) يشير إلى قيام ثورة سنة ١٩١٩.

obeikandl.com

آثـــر النيـــل علـــى أموالـــه وقـــواه وهـــواه والولـــد
يطلـــب الخيـــر لمصـــر وهـــو فـــي شـــقوة أحلـــى مـــن العـــيش الرغـــد
ضـــارب فـــي الأرض يبغـــي مأربـــاً كمـــا قاربـــه عنـــه ابتعـــد
لـــم يعبـــه أن تجنـــي دهـــره رب جـــد حـــاد عـــن مجـــراه جـــدا [١]
يســـتحم العـــزم حتـــى إن بـــدت فرصـــة شـــد إليـــه وصـــمد
فهـــو لا يثنـــي عنانـــاً عـــن منـــى وهـــو هجيـــراه (مـــن جـــد وجـــد)
فأياديـــه إذا مـــا أنكـــرت إنمـــا تنكرهـــا عـــين الحســـد

***

فقـــدت مصـــر (فريـــداً) وهـــي فـــي مـــوطن يعوزهـــا فيـــه المـــدد
فقـــدت مصـــر (فريـــداً) وهـــي فـــي لهـــوة الميـــدان والمـــوت رصـــد
فقـــدت منـــه خبيـــراً حـــولا [٢] وهـــي والأيـــام فـــي أخـــذ ورد
لـــم ســـكد يمتعهـــا الـــدهر بـــه فـــي ربـــوع النيـــل حيـــا لـــم يكـــد
ليتـــه عـــاش قلـــيلاً فتـــرى شـــعب مصـــر عينـــه كيـــف اتحـــد
ويـــح مصـــر بـــل فويحـــاً للثـــرى إنـــه أبلـــغ حزنـــا وأشـــد
كـــم تمنـــي وتمنـــى أهلـــه لـــو يـــواري فيـــه ذيـــاك الجســـد [٣]

***

لهـــف نفســـي هـــل (ببـــرلين) امـــرؤ فـــوق ذاك القبـــر صـــلى وســـجد؟
هـــل بكـــت عـــين فـــروت تربـــه هـــل علـــى أحجـــاره خـــط أحـــد؟
هـــا هنـــا قبـــر شـــهيد فـــي هـــوى أمـــةٍ أيقظهـــا ثـــم رقـــد!

---

(١) الجد (بالكسر) الاجتهاد، وبالفتح الحظ. والمعنى: رب اجتهاد أخطأه الحظ.

(٢) الحول: الحادق البصري بتحويل الأمور.

(٣) الجد (بالكسر) الاجتهاد، وبالفتح الحظ، والمعنى: رب اجتهاد أخطأه الحظ.

obeikandl.com

ثورة سنة ١٩١٩

حيا حافظ ثورة ١٩١٩ في قصيدة نظمها عن أول مظاهرة للسيدات قمن بها يوم ١٦ مارس ١٩١٩ احتجاجاً على عسف الإنجليز حيال المظاهرات السابقة وما ارتكبوه مع المتظاهرين من فظائع القتل والتنكيل، وقد مجد حافظ شعور السيدات المتظاهرات وشجاعتهن، وحمل في قصيدته لاذعة على مسلك الجنود الإنجليز حيالهن، قال:

خرج الغواني يحتجن ... ورحت أرقب جمعهنه
فإذا بهن تخذن من ... سود الثياب شعارهنة
فطلعن مثل كواكب ... يسطعن في وسط الدجنه [1]
وأخذن يجتزن الطريق ... ودار "سعد" قصدهنه
يمشين في كنف الوقا ... ر وقد أيقن شعورهنه
وإذا بجيش مقبل ... والخيل مطلقة الأعنه
وإذا الجنود سيوفها ... قد صوبت لنحورهنه
وإذا المدافع والبنا ... دق والصوارم والأسنه
والخيل والفرسان قد ... ضربت طاقا حولهنه
والورد والريحان في ... ذاك النهار سلاحهنه
فتطاحن الجيشان سا ... عات تشيب لها الأجنه
فتضعضع النسوان والنسـ ... ـوان ليس لهن منه [2]
ثم انهزمن مشتتات الشمـ ... ـل نحو قصورهنه

***

فليهنا الجيش الفخو ... ر بنصره وبكسرهنه!
فكأنما (الألمان) قد ... لبسوا البراقع بينهنه
وأتوا (بهندنبرج [3]) مختـ ... ـفيا بمصر يقودهنه

---

(١) الدجنة: الظلام.

(٢) المنة: القوة.

(٣) المارشال هندنبرج، القائد الشهير في الحرب العالمية الأولى.

obeikandl.com

فلـــــــذاك خـــــــافوا بأســـــــهن وأشـــــــفقوا مـــــــن كيدهنـــــــه!

وأنشأ قصيدة حيا بها جمعية المرأة الجديدة، وألمع فيها إلى بطولة المرأة في ثورة سنة ١٩١٩.

قال:

إلـــيكن يهـــدي النيـــل ألـــف تحيـــة معطـــرة فـــي أســـطر عطـــرات
ويثنـــي علـــى أعمـــالكن مـــوكلي [١] بـــإطراء أهـــل البـــرد والحســـنات
أقمـــتن بـــالأمس الأســـاس مباركـــاً وجئـــتن يـــوم الفـــتح مغتبطـــات
صـــنعتن مـــا يعبـــي الرجـــال صـــنيعه فـــزدتن فـــي الخيـــرات والبركـــات

***

يقولـون: نصـف النـاس فـي الشـرق عاطـل نســاء قضــين العمــر فــي الحجــرات
وهــذي بنــات النيــل يعملــن للنهــي زيغرســن غرســا دانــي الثمــرات
وفــي الســنة الســوداء كنــتن قــدوة لنــا حــين ســال المــوت بالمهجمــات
وقفــتن فــي وجــه الخمــيس مــدججاً وكنــتن بالإيمــان معتصــمات
ومــا هــالكن الــرمح والســيف مصــلتا ولا المــدفع الرشــاش فــي الطرقــات
تعلــم مــنكم الرجــال فأصــبحوا علــى غمــرات المــوت أهــل ثبــات

مصر تتحدث عن نفسها

قصيدة غراء قالها سنة ١٩٢١ على أثر قطع مفاوضات عدلي- كيرزون، حين سفرت نيات الإنجليز في العدوان على مصر، وقد أشاد فيها بمجد مصر وعظمتها، ثم أشار إليها وهي تستنجد بنيها البررة على غدرات الأيام ويهيب بهم أن ينظروا من تليد مجدها إلى المثل الأعلى

---

(١) موكلي: أي أن النيل قد أنابه عنه في إبلاغهن ثناءه عليهن.

oberkanal.com

ليحتذوه، ويتعاونوا على التمسك بالحق كاملاً حتى يبلغوه، وقد أجرى الخطاب في القصيدة على لسان مصر لينصت الجميع لصوتها، إذ هي فوق الجميع، وكان عنوان القصيدة حين نشرت (مصر فوق الجميع) وهذا القصيدة أنشدتها سيدة الطرب أم كلثوم من روائع أغانيها:

وقف الخلق ينظرون جميعاً ... كيف أبني قواعد المجد وحدي
وبناة الأهرام في سالف الدهر ... سر كفوني الكلام عند التحدي
أنا تاج العلاء في مفرق [1] الشر ... ق ودراته فرائد عقدي
أي شيء في الغرب قد بهر النا ... س جمالا ولم يكن منه عندي؟
فترابي تبر ونهر فرات ... وسمائي مصقولة كالفرند [2]
أينما سرت جول عندكم كرم ... عند زهر مدنر عند رند [3]
ورجالي لي أنصفوهم لسادوا ... من كهول ملء العيون ومرد [4]
لو أصابوا لهم مجالا لأبدوا ... معجزات الذكاء في كل قصد
أنا إن قدر الإله مماتي ... لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدي

ما رماني رام راح سليما ... من قديم عناية الله جندي
كم بغت دولة على وجارت ... ثم زالت وتلك عقبي التعدي
إنني حرة كسرت قيودي ... رغم رقبي العدا وقطعت قدي [5]

***

قل لمن أنكروا مفاخر قومي ... مثل ما أنكروا مآثر ولدي
هل وقفتم بقمة الهرم الأكـ ... ـبر يوماً فريتم بعض جهدي؟ [6]

---

(١) المفرق: وسط الرأس.

(٢) الفرات: العذب. والفرند: السيف.

(٣) المدنر: أي مختلف الألوان، أو المشرق المتلألئ. والرند: شطر طيب الرائحة.

(٤) مرد: جمع أمرد، وهو الشاب.

(٥) القد: القيد، بقد منجلد.

(٦) فريتم: أي فرأيتم.

obeikandl.com

هـــل رأيـــتم تلـــك النقـــوش اللـــواتي ... أعجـــزت طـــوق صـــنعة المتحـــدي؟
حـــال لـــون النهـــار مـــن قـــدم العهـــ ... ـــد ومـــا مـــس لونهـــا طـــول عهـــد
هـــل فهمـــتم أســـرار مـــا كـــان عنـــدي ... مـــن علـــوم مخبـــوءة طـــي بـــردي؟
داك فـــن التحنـــيط قـــد غلـــب الدهـــ ... ـــــروابلي البلـــــى وأعجـــز نـــدى

***

قـد عقـدت العهـود مـن عهـد فرعـو ... ن ففـــي (مصـــر) كـــان أو عقـــد
إن مجـــدي فـــي الأوليـــات عريـــق ... مـــن لـــه مثـــل أوليـــاتي ومجـــدي؟
أنـــا أم (التشـــريع) قـــد أخـــذ الـــرو ... مـــان عنـــي الأصـــول فـــي كـــل حـــد
ورصـــدت النجـــوم منـــذ أضـــاءت ... فـــي ســـماء الـــدجى فأحكمـــت رصـــدي
وشـــدا (بنتئـــور [1]) فـــوق ربـــوعي ... قبـــل عهـــد اليونـــان أو عهـــد (نجـــد)
أترانـــي وقـــد طويـــت حيـــاتي ... فـــي مـــراس لـــم ابلـــغ اليـــوم رشـــدي؟
أي شـــعب أحـــق منـــي بعـــيش ... وارف الظـــل أخضـــر اللـــون رغـــد؟

***

أمـــن العـــدل أنهـــم يـــردون الـــ ... ـــــــماء وأن يكـــــــدر وردي؟
أمـــن الحـــق أنهـــم يطلقـــون الـــ ... ـــأسد مـــنهم وأن تقيـــد أســـدى؟
نصـــف قـــرن إلا قلـــيلا أعـــاني ... مـــا يعـــاني هوانـــه كـــل عبـــد [2]
نظـــر الله لـــي فأرشـــد أبنـــا ... ئـــي فشـــدوا إلـــى العـــلا أي شـــد
إنمـــا الحـــق قـــوة مـــن قـــوى الـــد ... يـــان أمضـــي مـــن كـــل أبـــيض هنـــدي

وقال في تمجيد التضحية والصمود والصبر أمام الشدائد:

---

(١) بنتئور: أقدم شاعر عرفه التاريخ وهو مصري، وقبل عهد اليونان الخ، أي قبل شعراء اليونان وشعراء العرب.

(٢) يقصد عهد الاحتلال البريطاني.

obeikandl.com

قـــد وعـــدت العلـــي بكـــل أبـــي ... مـــن رجـــالي فـــأنجزوا اليـــوم وعـــدي
أمهروهـــا بـــالروح فهـــي عـــروس ... تشـــنأ المهـــر فـــي عـــروض ونقـــد [1]
وردوا بـــي مناهـــل العـــز حتـــى ... يخطـــب الـــنجم فـــي المجـــرة ودي
وارفعـــوا دولتـــي علـــى العلـــم والأخـــ ... ـــلاق فـــالعلم وحـــده لـــيس يجـــدي
وتواصـــــوا بالصـــــبر إن فـــــا ... رق قومـــا فمـــا لـــه مـــن مســـد
خلـــق الصـــبر وحـــده نصـــر القـــو ... م وأغنـــى عـــن اختـــراع وعـــد
شـــهدوا حوامـــة الـــوغي بنفـــوس ... صـــابرات وأوجـــه غيـــر ربـــد
فحمـــا الصـــبر آيـــة العلـــم فـــي الحـــرب ... وأنحـــى علـــى القـــوى الأشـــد

وقال يدعو إلى توحيد الكلمة ونبذ الشقاق وكانت البلاد وقتئذ في غمرة من الانقسام:

إن فـــي الغـــرب أعينـــا راصـــدات ... كحلتهـــا الأطمـــاع فـــيكم بســـهد
فوقهـــا مجهـــر يريهـــا خفايـــا ... كـــم ويطـــوي شـــعاعه كـــل بعـــد
فاتقوهـــا بجنـــة مـــن وئـــام ... غيـــر رث العـــرا وســـعي وكـــد
واصـفحوا عـن هنـات مـن كـان مـنكم ... رب هـــافٍ هفـــا علـــى غيـــر عمـــد
نحـــن نجتـــاز موقفـــاً تعثـــر الآ ... راء فيـــه وعثـــرة الـــرأي تـــردي
ونعيـــر الأهـــواء حربـــاً عوانـــاً ... مـــن خـــلاف والخلـــف كالســـل يعـــدي
ونيـــر الفوضـــى علـــى جانبيـــه ... فيعيـــد الجهـــول فيهـــا ويبـــدي
ويظـــن الغـــوى أن لا نظـــام ... ويقـــول القـــوى قـــد جـــد جـــدي
فقفـــوا فيـــه وقفـــة الحـــزم وارمـــوا ... جانبيـــه بعزمـــة المســـتعد
إننـــا عنـــد فجـــر ليـــل طويـــل ... قـــد قطعنـــاه بـــين ســـهد ووجـــد
غمرتنـــا ســـود الأهاويـــل [2] فيـــه ... والأمـــاني بـــين جـــزر ومـــد
وتجلـــى ضـــياؤه بعـــد لأيٍ ... وهـــو رمـــز لعهـــدي المســـترد
فاســـتبينوا قصـــد الســـبيل وجـــدوا ... فالمعـــالي مخطوبـــة للمجـــد

---

(١) تشنأ: تكره.

(٢) الأهاويل جمع أهوال.

obeikandl.com

الاستقلال المقيد

قالها عندما أعلن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢:

أصبحت لا أدري على خبرة ... أجدت الأيام أم تمزح؟
أموقف للجد نجتازه ... أم ذاك للاهى بنا مسرح؟
ألمح لاستقلالنا لمعة ... في حالك الشك فاستروح
وتطمس الظلمة آثارها ... فأنثنى أنكر ما ألمح
قد حارت الأفهام في أمرهم ... إن لمحوا بالقصد أو صرحوا!
فقائل لا تعجلوا إنكم ... مكانكم بالأمس لم تبرحوا
وقائل أوسع بها خطوة ... وراءها الغاية والمطمح
وقائل أسرف في قوله: ... هذا هو استقلالكم فافرحوا
إن تسألوا العقل يقل عاهدوا ... واستوثقوا في عهدكم تربحوا
وأسسوا داراً لنوابكم ... للرأي فيها والحجا أفسحوا
ولتذكر الأمة ميثاقها ... ألا ترى عزتها تجرح
وتنتخب صفوة أبنائها ... فمنهم المخلص والمصلح
وليتق الله أولو أمرها ... أن يسكتوا الأصوات أو يرفحوا [٢]
أو تسألوا القلب يقل حاذروا ... وصابروا أعداءكم تفلحوا
إني أرى قيداً فلا تسلموا ... أيديكم فالقيد لا يسجح [٣]
إن هيأوه من حرير لكم ... فهو على لين به أفدح
حتام- والصبر له غاية- ... لغيرنا من بئرنا نمتح؟
حتام- والأموال مشفوهة- [١] ... نمنح إلا (مصر) ما نمنح؟
حتام يمضي أمرنا غيرنا ... وذاك بالأحرار لا يملح؟

---

(١) أي مستنفدة مضيعة.

(٢) يريد تأين المواطنين من النفي إلى (رفح) وكانت منذ ثورة سنة ١٩١٩ منفي للأحرار.

(٣) يلين ويسهل.

obeikandl.com

وعاد يدعو إلى الوحدة والوئام ويستنكر الفرقة والانقسام:

أساء بعض الناس في بعضهم ... ظنا وقد أمسوا وقد أصبحوا
فانتهزت أعداؤنا نُهْزَةً ... فينا وما كانت لهم تسنح
فالرأيُ كل الرأي أن تجمعوا ... فإنما إجماعكم أرجح
وكل من يطمع في صدعكم ... فإنه في صخرة ينطح
أخْشَى إذا استمثرتم بينكم ... من قادة الآراء أن تفضحوا
فلتقصدوا ما استطعتم فيهم ... فإنما في القلة المنجح

يستحث المواطنين على التضحية والجهاد

نظم حافظ سنة ١٩٠٤ قصيدة رائعة عن (غادة اليابان) ضرب فيها الأمثال في التضحية والجهاد، وجعلها على لسان غادة وطنية من اليابان وأشاد بشجاعتها في الحرب التي شبت بين بلادها والروسيا عام ١٩٠٤، إذ ذهبت متطوعة إلى ميادين القتال تواسي الجرحى، وترعي حقهم قال:

لا تلم كيف إذا السيف نبا [١] ... صح مني العزم والدهر أبي
رب ساع ميسر في سعيه ... أخطأ التوفيق فيما طلبا
مرحباً بالخطب يبلوني إذا ... كانت العلياء فيه السببا
إيه يا دنيا اعبسي أو فابسمي ... لا أرى برقك إلا خلبا [٢]

إلى أن قال:

كنت أهوى في زماني غادة ... وهب الله لها ما وهبا

---

(١) نبا السيف: كل وارتد.

(٢) البرق الخلب الذي ينتظر الناس مطره ويخلفهم.

حلمـــــت لـــــي ذات يـــــوم نبـــــأ ... لا رعـــــــاك الله يـــــــا ذاك النبـــــــا
وأنـــــت تخطـــــر والليـــــل فتـــــى ... وهـــــلال الأفـــــق فـــــي الأفـــــق حبـــــا
ثـــــم قالـــــت لـــــي بثغـــــر باســـــم ... نظـــــم الـــــدر بـــــه والحبيـــــــا
نبـــــأوني برحيـــــل عاجـــــل ... لا أرى لـــــي بعـــــده منقلبـــــا [٣]
ودعـــــاني مـــــوطني أن أغتـــــدى [١] ... علنـــــي أقضـــــي لـــــه مـــــا وهبـــــا
نـــــذبح الـــــدب [٢] ونفـــــري جلـــــده ... أيظـــــن الـــــدب أن لا يغلبـــــا؟

***

قلـــــت والآلام تغـــــري مهجتـــــي ... ويـــك! مـــا تصـــنع فـــي الحـــرب الظبـــا؟
مـــــا عهـــــدناها لظبـــــي مســـــرحا ... يبتغـــــي ملهـــــي بـــــه أو ملعبـــــا
ليســـــت الحـــــرب نفوســـــاً تشـــــتري ... بـــــالتمني أو عقـــــولا تســـــتبي
أحســـــبت القـــــد مـــــن عـــــدتها ... أم ظننـــــت اللحـــــظ فيهـــــا كالشـــــبا [٤]
فـــــدعيها للـــــذي يعرفهـــــا ... والزمـــــي يـــــا ظبيـــــة البـــــان الخبـــــا [٥]

***

(١) أغتدى، أي أبادر مبكرة للدفاع عنه.

(٢) الدب: رمز لروسيا.

(٣) المنقلب: العودة.

(٤) الشبا: جمع شباة وهي حد السيف.

(٥) البان: شجر لين تألفه الظبا، والخبا: البيت.

obeikandl.com

فأجـــابتني بصـــورة راعنـــي ... وأرتنـــي الظبـــى ليثـــا أغلبـــا
إن قـــومي اســـتعذبوا ورد الـــردى ... كيـــف تـــدعوني ألا أشـــربا؟
أنـــا يابانيـــة لا أنثنـــي ... عـــن مـــرادي أو أذوق العطبـــا
أنـــا إن لـــم أحســـن الرمـــي ولـــم ... تســـتطع كفـــاي تقليـــب الظبـــا
أخـــدم الجرحـــى وأقضـــي حقهـــم ... وأواســـي فـــي الـــوغي مـــن نكبـــا
هكـــذا (الميكـــاد) قـــد علمنـــا ... أن نـــرى الأوطـــان أمـــا وأبـــا
ملـــك يكفيـــك منـــه أنـــه ... أنهـــض الشـــرق فهـــزا المغربـــا
بعـــث الأمـــة مـــن مرقـــدها ... ودعـــا للعـــلا أن تـــدأبا
فســـمت للمجـــد تبغـــي شـــأوه ... وقضـــت مـــن كـــل شـــيء مأربـــا

يستنهض الهمم، ويدعو إلى توحيد الكلمة

قال من قصيدة له سنة ١٩٢٣ يخاطب المواطنين:

ويـــد الإلـــه مـــع الجماعـــة فاضـــربوا ... بعصـــا الجماعـــة تظفـــروا بنجـــاح
كونـــوا رجـــالا عـــاملين وكـــذبوا ... –والصـــبح أبلـــج– حامـــل المصـــباح [١]
ودعـــوا التخـــاذل فـــي الأمـــور فإنمـــا ... شـــبح التخـــاذل أنكـــر الأشـــباح
والله مـــا بلـــغ الشـــقاء بنـــا المـــدى ... بســـوى خـــلاف بيننـــا وتلاحـــي [٢]

***

قـم يـا ابـن مصـر فأنـت حـر واسـتعد ... مجـــد الجـــدود ولا تعـــد لمـــراح [٣]
شـــمر وكـــافح فـــي الحيـــاة فهـــذه ... دنيـــاك دار تنـــاحر وكفـــاح

---

(١) الإشارة إلى الفيلسوف ديوجنس الذي كان يحمل في رابعة النهار مصباحا يبحث عن رجل.

(٢) التلاحي: التخاصم.

(٣) يريد بمراح: الأخذ بأسباب المرح واللهو.

obeikandl.com

وإذا ألـــح عليـــك خطـــب لا تهـــن ... واضـــرب علـــى الإلحـــاح بالإلحـــاح
وخـــض الحيـــاة وإن تلاطـــم موجهـــا ... خـــوض البحـــار رياضـــة الســـباح
فـــي البحـــر لا تثنيـــك نـــار بـــوارج ... فـــي البـــر لا يلويـــك غـــاب رمـــاح
وانظـــر إلـــى الغربـــي كيـــف ســـمت بـــه ... بـــين الشـــعوب الشـــعوب طبيعـــة الكـــداح

إلى أن قال:

وابـــن الكنانـــة فـــي الكنانـــة راكـــد ... يرنـــو بعـــين غيـــر ذات طمـــاح
لا يســـتغل كمـــا علمـــت ذكـــاءه ... وذكـــاؤه كالخـــاطف اللمـــاح
فـــانهض ودع شـــكوى الزمـــان ولا تـــنح ... فـــي فـــادح البؤســـي مـــع الأنـــواح
واربـــح لمصـــر بـــرأس مالـــك عـــزة ... إن الـــذكاء حبالـــة الأربـــاح
واشـــرب مـــن المـــاء القـــراح منعمـــا ... فلكـــم وردت المـــاء غيـــر قـــراح

يحذر سعداً من خداع الإنجليز

قال سنة ١٩٢٤ يخاطب سعد زغلول من قصيدة له تهنئته بنجاته من محاولة اغتياله وكان إذا ذاك معتزماً السفر إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية في القضية الوطنية:

لا تقـــرب (التـــاميز) واحـــذر مـــاءه ... مهمـــا بـــدا لـــك أنـــه معســـول
الكيـــد ممـــزوج بأصـــفى مائـــه ... والختـــل [١] فيـــه مـــذوب مصـــقول
كـــم وارد يـــا (ســـعد) قبلـــك مـــاءه ... قـــد عـــاد منـــه وفـــي الفـــؤاد غليـــل [٢]
القـــوم قـــد ملكـــوا عنـــا زمـــانهم ... ولهـــم روايـــات بـــه وفصـــول
ولهـــم أحابيـــل [١] إذا ألقـــوا بهـــا ... قنصـــوا النهـــي أســـيرهم مخبـــول
ولكـــل لفـــظ فـــي المعـــاجم عنـــدهم ... معنـــى يقـــال بأنـــه معقـــول
نصـــلت [٢] سياســـتهم وحـــلا صـــباغها ... ولكـــل كاذبـــة الخضـــاب نصـــول

---

(١) الأحابيل: المصايد.

(٢) نصلت: انكشفت وخرجت من لونها الكاذب شغلى لونها الحقيقي. وحال: تحول.

obeikandl.com

جمعـــوا عقـــاقير الـــدواء وركبـــوا مـــا ركبـــوه وعنـــدك التحليـــل

حافظ والإنجليز وجها لوجه

في سنة ١٩٣٢ ساهم الإنجليز مع العناصر الرجعية في إلغاء الحياة الدستورية، وتظاهروا بأنهم على الحياد في هذه المحنة، مع أنهم مدبروها، وقد هاجمهم حافظ بقصائد رائعة نعي فيها عليهم بغيتهم وعدواهم، وكشف فيها الستار عن حياد الكاذب، وطعن على سياسة الاستعمار عامة، و أعاد بحملاته عليهم ذكرى قصائده الوطنية الخالدة التي نظمها في تمجيد الحركة الوطنية ومهاجمته الاحتلال في عهد مصطفى كامل ومحمد فريد.

قال في مارس سنة ١٩٣٢ مخاطباً الإنجليز منددا بسياسة "الحياد" التي أعلنوها، ناعيا عليهم ظلمهم وإخلافهم وعودهم للأمة:

بنيـتم علـى الأخـلاق آسـاس ملككـم فكـان لكـم بـين الشـعوب ذمـام [٤]
فمـالي أرى الأخـلاق قـد شـاب قرنهـا [٣] وحـل بهـا ضـعف ودب سـقام
أخـاف علـيكم عثـرة بعـد نهضـة فلـيس لملـك الظـالمين دوام
أضـعتم ودادا لـو رعيـتهم عهـوده لمـا قـام بـين الأمنـين خصـام
أبعـد "حيـاد" لا راعـي الله عهـده وبعـد الجـروح النـاغرات [٥] وئـام؟
إذا كـان فـي حسـن التفـاهم موتنـا فلـيس علـى بـاغي الحيـاة مـلام

---

(١) الختل: الخداع والمكر.

(٢) الغليل: شدة العطش.

(٣) القرن: الذؤابة من الشعر.

(٤) الذمام هنا الحق والحرمة.

(٥) الناغرات: الداميات.

obeikandl.com

وقال في هذا المعني:

لا تـــذكروا الأخـــلاق بعـــد "حيـــادكم" فمصـــــابكم ومصـــــابنا ســـــيان
حـــــاربتمو أخلاقكـــــم لتحـــــاربوا أخلاقنـــــا فتـــــألم الشـــــعبان

وقال عن (اليحاد الكاذب):

قصـــــر الـــــدبارة قـــــد نقضـــــ ـــــت العهـــــد نقـــــض الغاصـــــب
أخفيـــــت مـــــا اضـــــمرته وأبنـــــت ود الصـــــاحب
الحـــــرب أروح للنفـــــو س مـــــن "الحيـــــاد" الكـــــاذب

وقال مخاطباً السير برسي لورين المندوب السامي البريطاني وقتئذ، منددا بحياد الإنجليز المصطنع:

ألـم تـر فـي الطريـق إلـى "كيـاد" [1] تصـــيد الـــبط بـــؤس العالمينـــا؟
ألـــم تلمـــح دمـــوع النـــاس تجـــري مـــن البلـــوى- ألـــم تســـمع أنينـــا؟
ألـــم تخبـــر بنـــي "التـــاميز" عنـــا وقـــد بعثـــوك منـــدوبا أمينـــا؟
بأنـــا قـــد لمســـنا الغـــدر لمســـا وأصـــبح ظننـــا فـــيكم بقينـــا
كشـــفنا عـــن نوايـــاكم فلســـتم وقـــد بـــرح الخفـــاء محايـــدينا
ســـنجمع أمرنـــا فتـــرون منـــا لـــدى الجلـــى [2] كرامـــاً صـــابرينا
ونأخـــذ حقنـــا رغـــم العـــوادي تطيـــف نـــا ورغـــم القاســـطينا [3]
ضـــربتم حـــول قادتنـــا نطاقـــا مـــن النيـــران يعيـــي الـــدارعينا
عـــل رغـــم المـــروءة قـــد ظفـــرتم ولكـــن بالأوســـد مصـــفدينا
فهـــل يجـــديكم الأســـطول نفعـــا إذا مـــا نـــازل الحـــق المبينـــا؟

---

(١) بركة بمركز فاقوس

(٢) الجلى: النازلة الشديدة.

(٣) القاسطون: الظالمون.

obeikandl.com

وقال في هذا المعنى (ابريل سنة ١٩٣٢):

(إلى المحايدين)

أمحايـــــــــد أم حائـــــــــد ... عـــن مـــنهج الحـــق المبـــين؟
نازلـــــت شـــــعباً أعـــــزلاً ... بمـــــــــدرعين مـــــــــدججين
وأمنـــــت عقبـــــي الظـــــالمين ... وبـــــئس عقبـــــي الظـــــالمين!
مهمـــــا تصـــــب منـــــا فلســـــ ... ـــــنا الجـــــازعين اليائســـــين
إن بجبـــــــار الســـــــماء ... وبالعقيـــــــدة نســـــــتعين
إن العقيـــــــدة لا تـــــــزل ... ـــــزلها حـــــراب الغاصـــــبين
فلـــــئن ملكـــــتم يـــــومم ... لغـــــد لـــــرب العـــــالمين
أأمنتـــــو صـــــرف الزمـــــ ... ـــــان وفتكـــــه بالغاشـــــمينظ

***

كـــــم مـــــن قـــــوى هـــــده ... كيـــــد الضـــــعيف المســـــتكين
أو لـــــم تـــــروا مـــــا ذاقـــــه ... بـــــالأمس ذيـــــاك الســـــجين [1]؟
فـــــي (ســـــنت هيلـــــين) قضـــــى ... مـــــن دوخ الـــــدنيا ســـــنين
مـــــن كـــــان فـــــي غاراتـــــه ... فـــــي الكـــــون منقطـــــع القـــــرين
أمســـــى ألانتـــــه بـــــالخطوب ... وكـــــان صـــــلباً لا يلـــــين
أو تتقـــــون مصـــــيره ... أم لســـــتمو بـــــالمتقين؟

***

ضـــــقنا بكيـــــد محايديـــــ ... ـــــن لنـــــا وكيـــــد مبشـــــرين
ثـــــاروا علـــــى ديـــــن الهـــــدى ... وتخطفـــــوا منـــــا البنـــــين

---

(١) نابلوين، وقد مات أسيرا سجينا في جزيرة سنت هيلين.

obeikandl.com

داســـــوا العـــــرين وقـــــد خـــــلا ... مـــــــن أســـــــده ذاك العـــــــرين
خســـــــر المبشـــــــر، إن ديـــــــن ... الحـــــــق ديـــــــن المســـــــلمين
الله حاميـــــــــــه وكافيـــــــــــه ... شـــــــــــرور المعتـــــــــــدين

نحن والإنجليز وجها لوجه

وقال أيضاً:

قـــل للمحايـــد هـــل شـــهدت دماءنـــا ... تجـــري وهـــل بعـــد الـــدماء ســـلام؟
ســـــفكت مودتنـــــا لكـــــم وبـــــدالنا ... أن الحيـــــاد علـــــى الخصـــــام لئـــــام
إن المراجـــــل شـــــرها لا يتقـــــي ... حتـــــى يـــــنفس كـــــربهن صـــــمام
لـــم يبـــق فينـــا مـــن يمنـــى نفســـه ... بـــــودادكم فـــــودادكم أحـــــلام
أمـــــن السياســـــة والمـــــروءة أننـــــا ... نشـــقى بكـــم فـــي أرضـــنا ونضـــام؟
إنـــــا جمعنـــــا للجهـــــاد صـــــفوفنا ... ســـــنموت أو نحيـــــى ونحـــــن كـــــرام

وقال في أبريل سنة ١٩٣٢ تحت عنوان (إلى الإنجليز)، وهي من أبلغ ما قيل في تحدي القوة الغاشمة والصمود أمام الشدائد مهما عظمت:

حولـــوا النيـــل واحجبـــوا الضـــوء عنـــا ... واطمســـوا الـــنجم واحرمونـــا النســـيما
وامـــــلأوا البحـــــر إن أردتـــــم ســـــفينا ... وامـــــلأوا الجـــــو إن أردتـــــم رجومـــــا
وأقيمـــوا للعســـف فـــي كـــل شـــبر ... (كونســـتبلا) بالســـوط يفـــري الأديمـــا [1]
إننـــا لـــن نحـــول عـــن عهـــد مصـــر ... أو ترونـــا فـــي التـــراب عظمـــاً رميمـــا

***

(١) يفري الأديم أن يشق الجلد.

obeikandl.com

عاصـــف صـــان ملككـــم وحمـــاكم وكفـــاكم بـــالأمس خطبـــاً جســـيما
غـــال (أرمـــادة) [1] العـــدو ففـــزتم وبلغـــتم فـــي الشـــرق شـــأوا عظيمـــا
فعـــــدلتم هنيهـــــة، وبغيـــــتم وتـــركتم فـــي النيـــل عهـــداً ذميمـــا
فشـــهدنا ظلمـــا يقـــال لـــه العـــد ل وودا يســـقي الحمـــيم الحميمـــا [2]
فـــاتقوا غضـــبة العواصـــف إنـــي قـــد رأيـــت المصـــير أمســـى وخيمـــا!

وقال أيضاً (أبريل سنة ١٩٣٢):

لقـــد طـــال الحيـــاد ولـــم تكفـــوا أمـــا أرضـــاكم ثمـــن الحيـــاد؟
أخـــذتم كـــل مـــا تبغـــون منـــا فمـــا هـــذا الـــتحكم فـــي العبـــاد؟
بلونـــا شـــدة مـــنكم ولينـــاً فكـــان كلاهمـــا ذر الرمـــاد
وســـالمتم وعـــاديتم زمانـــا فلـــم يغـــن المســـالم والمعـــادي
فلـــيس وراءكـــم غيـــر التجنـــي ولـــيس أمامنـــا غيـــر الجهـــاد

وعود الإنجليز في الجلاء

وقال في سنة ١٩٣٢ يندد بكاتب فرنسي زعم أن جلاء الإنجليز سيكون في أكتوبر من ذلك العام:

كـــم حـــددوا يـــوم الجـــلاء الـــذي أصـــبح فـــي الإبهـــام كالمحشـــر
وســـن قـــوم الطـــيش مـــن جهلهـــم كذبـــة (إبريـــل لأكتـــوبر)

(١) الأرمادة هي الأسطول الأسباني الذي تحطم في القرن السادس عشر بعاصفة حالت بينه وبين مهاجمة الأسطول الإنجليزي الذي كان دونه وعددا.

(٢) الحميم الأول الصديق، والحميم الثاني الشراب الشديد الحرارة.

obeikandi.com

حافظ وصدقي باشا

وقال في سنة ١٩٣٢ يندد بسياسة صدقي باشا رئيس الوزارة وقتئذ من قصيدة لم ينشر منها إلا النزر اليسير:

قد مر عام يا سعاد وعام ... وابن الكنانة في حمام يضام
صبوا البلاء على العباد فنصفهم ... يجبي البلاد ونصفهم حكام
أشكو إلى (قصر الدبارة) ماجتي ... (صدقي) الوزير وماجبي (علام) [١]

ومنها في مخاطبة صدقي باشا:

ودعا عليك الله في محرابه ... الشيخ والقسيس والحاخام
لا هم أحي ضميره ليذوقها ... غصصا وتنسف نفسه الآلام

يكافح الاستعمار ويدعو إلى الفداء

قال في حرب طرابلس (سنة ١٩١١– ١٩١٢) حين اعتدت إيطاليا على العرب يستحث أمم الشرق أن تنهض وتكافح الاستعمار، ويمجد التضحية في سبيل الحرية:

طمع ألقى عن الغرب اللثاما ... فاستفق يا شرق واحذر أن تناما!
وأحملي أيتها الشمس إلى ... كل من يسكن في الشرق السلاما
واشهدي يوم التنادي [٢] أننا ... في سبيل الحق قد متنا كراما
مادت الأرض بنا حين انتشت ... من دم القتلى حلالاً وحراما
عجز الطليان عن أبطالنا ... فأعلوا [٢] من دارينا الحساما
كبلوهم، قتلوهم، مثلوا ... بذوات الخدر، طاحوا باليتامى

---

(١) محمد علام باشا، وكيل حزب أشعب الذي ألفه صدقي باشا. يشير على ما كانوا يجبونه من الأموال إعانة لحزب الشعب.

(٢) يوم القيامة.

obeikandl.com

ذبحـــوا الأشـــياخ والزمنـــي [1]، ولـــم يرحمـــوا طفـــلاً، ولـــم يبقـــوا غلامـــا
أحرقـــوا الـــدور، اســـتحلوا كـــل مـــا حرمـــت (لاهـــاي) فـــي العهـــد احترامـــا
بـــارك المطـــران فـــي أعمـــالهم فســـلوه: بـــارك القـــوم علامـــا؟
أبهـــذا جـــاءهم إنجـــيلهم آمـــراً يلقـــي علـــى الأرض ســـلاما؟
كشـــفوا عـــن نيـــة الغـــرب لنـــا وجلـــوا عـــن أفـــق الشـــرق الظلامـــا
فقرأناهـــا ســـطوراً مـــن دم أقســـمت تلـــتهم الشـــرق التهامـــا

وختم قصيدته بقوله:

فـــاطئني أمـــم الشـــرق ولا تقنطـــي اليـــوم فـــإن الجـــد قامـــا
إن فـــي أضـــلاعنا أفئـــدة تعشـــق المجـــد، وتـــأبي أن تضـــاما

تمجيده للشورى

قال في عمريته المشهورة التي أنشأها في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب:

يـــا رافعـــاً رايـــة الشـــورى وحارســـها جـــزاك ربـــك خيـــراً عـــن محبيهـــا
لـــم يلهـــك النـــزع عـــن تأييـــد دولتهـــا [3] وللمنيـــة آلام تعانيهـــا
لـــم أنـــس أمـــرك للمقـــداد يحملـــه إلـــى الجماعـــة إنـــذارا وتنبيهـــا
إن ظـــل بعـــد ثـــلاث حاشـــية رأيهـــا شـــعباً فجـــرد الســـيف واضـــرب فـــي هواديهـــا
فاعجـــب لقـــوة نفـــس لـــيس يصـــرفها طعـــم المنيـــة مـــراً عـــن مراميهـــا
دري عميـــد بنـــي الشـــورى بموضـــعها فعـــاش مـــا عـــاش يبنيهـــا ويعليهـــا
ومـــا اســـبد بـــرأي فـــي حكومتـــه إن الحكومـــة تغـــري مســـتبديها
رأي الجماعـــة لا تشـــقي الـــبلاد بـــه رغـــم الخـــلاف ورأي الفـــرد يشـــقيها

---

(٢) أعلو أي سقوا.

(١) الزمني: ذوو العاهات.

(٣) دولتها: أي دولة الشورى.

obeikandl.com

الاستمرار في الكفاح

قال سنة ١٩٢٤ يدعو إلى الاستمرار في الكفاح:

إنـــا ســـنعمل للخـــلاص ولا ننـــي ... والله يقضـــي بيننـــا ويـــديل [١]
كـــم دولـــة شـــهد الصـــباح جلالهـــا ... وأتـــى عليهـــا الليـــل وهـــي فلـــول
وقصـــور قـــوم زاهـــرات فـــي الـــدجى ... طلعـــت عليهـــا الشـــمس وهـــي طلـــول

***

يأيهـــا الـــنشء الكـــرام تحيـــة ... كـــالروض قـــد خطـــرت عليـــه قبـــول [٢]
يـــا زهـــر مصـــر وزينهـــا وحماتهـــا ... مـــدحي لكـــم بعـــد الـــرئيس [٣] فضـــول
جـــدتم لهـــا بـــالنفس فـــي ورد الصـــبا ... والـــورد لـــم ينظـــر إليـــه ذبـــول
كـــم مـــن ســـجين دونهـــا ومجاهـــد ... دمـــه علـــى عرصـــاتها مطلـــول
ســـيروا علـــى ســـنن الـــرئيس وحققـــوا ... أمـــل الـــبلاد فكلكـــم مـــأمول
أنـــتم رجـــال غـــد وقـــد أوفـــى غـــد ... فاســـتقبلوه وحجلـــوه وطولـــوا [٤]

---

(١) يديل، أي يجعل الدولة لنا عليهم.

(٢) القبول: ريح الصبا.

(٣) يقصد هنا سعد زغلول.

(٤) حجلوه، أي اجعلوه يوما ابيض، وطولوا أي افخروا واعتزوا.

obeikandl.com

تقريعه للمواطنين

وبلغ حثه المواطنين على النهوض حد التقريع أحياناً. وله سنة ١٩٠٤ قصيدة ينعني فيها على مواطنيه بعض عيوبهم الاجتماعية، وقد نظمها لمناسبة قضية شخصية ثار لها الرأي العام بغير موجب، إذ تزوج صاحب المؤيد المرحوم الشيخ على يوسف بكريمة السيد عبد الخالق السادات، فرفع هذا دعوى أمام المحكمة الشرعية طالباً فسخ عقد الزواج بحجة عدم الكفاءة في النسب، وانحاز الرأي العام إلى جانب المدعي، وأخذ القضاء بوجهة نظره رغم علو مكانة الشيخ على يوسف في الهيئة الاجتماعية، قال حافظ:

حطمت اليراع فلا تعجبي ... وعفت البيان فلا تعتبي
فما أنت يا مصر دار الأديب ... ولا أنت بالبلد الطيب
وكم فيك يا مصر من كاتب ... أقال اليراع ولم يكتب
فلا تعذليني لهذا السكوت ... فقد ضاق منك ما ضاق بي
أيعجبني منك يوم (الوفاق) [١] ... سكوت الجماد ولعب الصبي؟
وكم غضب الناس من قبلنا ... لسلب الحقوق ولم تغضب

***

أنابتة العصر إن الغريب ... مجد بمصر فلا تلعبي
يقولون: في النشء خير لنا ... وللنشء شر من الأجنبي
أفي (الأزبكية) مثوى البنين ... وبين المساجد مثوى الأب؟
(وكم ذا بمصر من المضحكات) ... كما قال فيها (أبو الطيب) [٣]
أمور تمر وعيش يمر [٢] ... ونحن من اللهو في ملعب
وشعب يفر من الصالحات ... فرار السليم من الأجرب
وصحف تطن طنين الذباب ... وأخرى تشن على الأقرب

---

(١) يقصد الإنفاق الذي عقد بين فرنسا وبريطانيا سنة ١٩٠٤ وبمقتضاه أقرت فرنسا الاحتلال البريطاني لمصر.

(٢) عيش يمر، أي يصير مراً.

(٣) يشير إلى قول أبي الطيب المتنبي: (وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا).

وهـــذا يلـــوذ بقصـــر الأميـــر ... ويـــدعو إلـــى ظلـــه الأرحـــب
وهـــذا يلـــوذ بقصـــر الســـفير ... ويطنـــب فـــي ورده الأعـــذب
وهـــذا يصـــيح مـــع الصـــائحين ... علـــى غيـــر قصـــد ولا مـــأرب

***

وقـــالوا: (المؤيـــد) فـــي غمـــرة ... رمـــاه بهـــا الطمـــع الأشـــعبي
دعـــاه الغـــرام بســـن الكهـــول ... فجـــن جنونـــا ببنـــت النبـــي!
فضـــج لهـــا العـــرش والحـــاملوه ... وضـــج لهـــا القبـــر فـــي (يثـــرب) [1]
ونـــادى رجـــال بإســـقاطه ... وقـــالوا: تلـــون فـــي المشـــرب
وعـــدوا عليـــه مـــن الســـيئات ... ألوفـــاً تـــدور مـــع الأحقـــب
وقـــالوا لصـــيق ببيـــت الرســـول ... أغـــار علـــى النســـب الأنجـــب
وزكـــي (أبـــو خطـــوة) قـــولهم ... بحكـــم أحـــد مـــن المضـــرب
فمـــا للتهـــاني علـــى داره ... تســـاقط كـــالمطر الصـــيب؟
ومـــا للوفـــود علـــى بابـــه ... تـــزف البشـــائر فـــي موكـــب؟
ومـــا للخليفـــة أســـدى إليـــه ... وســـاماً يليـــق بصـــدر الأبـــي؟

***

فيـــا أمـــة ضـــاق عـــن وصـــفها ... جنـــان المفـــوه والأخطـــب
تضـــيع الحقيقـــة مـــا بيننـــا ... ويصـــلي البـــريء مـــع المـــذنب؟
ويهضـــم فينـــا الإمـــام الحكـــيم ... ويكـــرم فينـــا الجهـــول الغبـــي

***

(١) اسم قديم للمدينة المنورة.

obeikandl.com

على الشرق مني سلام الودود وإن طأطأ الشرق للمغرب
لقد كان خصباً بجدب الزمان فأجدب في الزمن المخصب

شعره الاجتماعي

يزخر شعر حافظ بالاجتماعيات، فهو من هذه الناحية أغزر مادة وأعمق غورا من شوقي، ولا غرو فقد كان أكثر اتصالا بالطبقات الشعبية، وعاني ما تعانيه من الألم وللحرمان، فصار أدق تصويراً لأحوالها وآلامها، وفي ذلك يقول بحق عن نفسه في قصيدته التي أنشدها بدار الأوبرا سنة ١٩١١ في حفلة جمعية رعاية الأطفال:

لم أقف موقفي لأنشد شعراً صب في قالب بديع النظام
إنما قمت فيه والنفس نشوى من كؤوس الهموم والقلب دامي
فلهذا وقفت استعطف النا س على البائسين في كل عام
دقت طعم الأسى وكابدت عيشاً دون شربي قذاه شراب الحمام [1]
فتقلبت في الشقاء زمانا ونقلت في الخطوب الجسام
ومشى الهم ناقباً في فؤادي ومشى الحزن ناخراً في عظامي

عطفه على منكوبي حريق ميت غمر

في سنة ١٩٠٢ شب حريق مروع في مدينة ميت غمر، وبقيت النار مشتعلة فيها عدة أيام، فدمرت كثيراً من دورها ومات في الحريق كثيرون؛ ولعظم النكبة تسابق أهل الخير في إعانة المنكوبين وإسعافهم، وفاضت أعمدة الصحف بأبناء ما أصابهم، وفي ذلك أنشأ حافظ قصيدته المشهورة في وصف هذه الكارثة والعطف على ضحاياها. قال:

---

(١) الحمام الموت.

obeikandl.com

سائلوا الليل عنهم والنهارا ... كيف باتت نساؤهم والعذارى؟
كيف أمسي رضيعهم فقد الا ... م وكيف اصطلى مع القوم ناراً؟
كيف طاح العجوز تحت جدار ... يتداعي وأسقف تتجارى؟
رب إن القضاء أنحى عليهم ... فاكشف الكرب واحجب الأقدارا
ومر النار أن تكف أذاها ... ومر الغيث أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفلك يروي ... هذه النار فهي تشكو الأوارا [٢]
أشعلت فحمة الدياجي فباتت ... تملأ الأرض والسماء شرارا
غشيتهم والنحس يجري يمينا ... ورمتهم والبؤس يجري يسارا
فأغارت وأوجه القوم بيض ... ثم غارت وقد كستهن قارا
أكلت دورهم قلما استقلت ... لم تغادر صغارهم والكبارا
أخرجتهم من الديار عراة ... حذر الموت يطلبون الفرارا
يلبسون الظلام حتى إذا ما ... أقبل الصبح يلبسون النهارا
حلة لا تقيهم البرد والحـ ... ـر ولا عنهم ترد الغبارا
أيها الرافلون في حلل الوشـ ... ـي [٣] يجزن للذيول افتخارا
إن فوق العراء قوماً جياعاً ... يتوارون ذلة وانكسارا
إيهذا السجين [١] لا يمنع السجـ ... ـن كريماً من يقبل العثارا
مر بألف لهم وإن شئت زدها ... وأجرهم كما أجرت النصارى

***

قد شهدنا بالأمس في مصر عرسا [٤] ... ملأ العين والفؤاد ابتهارا
سال فيه للنضار حتى حسبنا ... أن ذاك الفناء يجري نضارا

---

(١) يقصد أحمد المنشاوي باشا المحسن وصاحب المبرات المعروفة.

(٢) الأوار: شدة الحرارة والعطش.

(٣) حلل الوشي الثياب المزركشة.

(٤) يقصد عرس زواج (الأمير) حيدر فاضل من كريمة على فهمي (باشا) سنة ١٩٠٢ وكان من أعظم المهرجانات.

بـــات فيـــه المنعمـــون بليـــل أخجـــل الصـــبح حســـنه فتـــوارى
يكتســـون الســـرور طـــورا وطـــوراً فـــي يـــد الكـــأس يخلعـــون الوقـــارا
وســمعنا فــي (ميــت غمــر) صــياحا مـــلأ البـــر ضـــجة والبحـــارا

***

جـــل مـــن قســـم الحظـــوظ، فهـــذا يتغنـــى وذاك يبكـــي الـــديارا
رب ليـل فـي الـدهر قـد ضـم نحسـا وســـعودا وعســـرة ويســـارا!

الجامعة في سبيل الكفاح

وقال من قصيدة له في سنة ١٩٠٨ يدعو إلى معاضدة مشروع الجامعة المصرية.

حيـــاكم الله أحيـــوا العلـــم والأدبـــا إن تنشـروا العلـم ينشـر فـيكم العربـا [١]
ولا حيـــــاة لكـــــم إلا بجامعـــــة تكـــون أمـــا لطـــلاب العـــلا وأبـــا
تبنـــي الرجـــال وتبنـــي كـــل شـــاهقة مـــن المعـــالي وتبنـــي العـــز والغلبـــا
ضـــعوا القلـــوب أساســـاً. لا أقـــول لكـــم ضـــعوا النضـــار فـــإني أصـــغر الـــذهبا
وابنـــوا بأكبـــادكم ســـوراً لهـــا ودعـــوا قيـــل العـــدو فـــإني أعـــرف الســـببا [٢]
لا تقنطـــوا إن قـــرأتم مـــا يزوقـــه ذاك العميـــد ويـــرميكم بـــه غضـــبا [٣]
وراقبـــوا يـــوم لا تغنـــي حصـــائده فكـــل حـــي ســـيجزي بالـــذي اكتســـبا [٤]
بنـــي علـــى الإفـــك أبراجـــاً مشـــيدة فـــابنوا علـــى الحـــق برجـــا يـــنطح الشـــهبا
وجـــاوبوه بفعـــل لا يقوضـــه قـــول المفنـــد أنـــي قـــال أو خطبـــا
لا تهجعـــوا إنهـــم لـــن يهجمـــوا أبـــداً وطـــالبوهم ولكـــن أجملـــوا الطلبـــا

---

(١) أي يبعث فيكم مجد العرب.

(٢) يشير على ما كان يقيمه المعتمد البريطاني من العقبات في سبيل إنشاء الجامعة.

(٣) يشير على ما كان يقيمه المعتمد البريطاني من العقبات في سبيل إنشاء الجامعة.

(٤) حصائد أي حصائد الصيد أي ما يقول ليثني به العزائم عن مشروع الجامعة.

obeikandl.com

وختمها بقوله:

إن تقرضـــوا الله فـــي أوطـــانكم فلكـــم أجـــر المجاهـــد طـــوبي للـــذي اكتتبـــا

رعاية الأطفال

وألقى في إبريل سنة ١٩١٠ القصيدة الآتية في احتفال أقامته جمعية رعاية الأطفال يصف بؤس أم فقيرة حالم وكيف لقيت الرعاية والإسعاف في مستشفى الجمعية:

شـــبحا أرى أم ذاك طيـــف خيـــال؟ لا، بـــل فتـــاة بـــالعراء حيـــالي
أمســـت بمدرجـــة الخطـــوب فمـــا لهـــا راع هنـــاك ومـــا لهـــا مـــن والـــي
حســـرى تكـــاد تعيـــد فخمـــة ليلهـــا نـــاراً بأنـــات ذكـــين [١] طـــوال
مـــا خطبهـــا عجبـــا، ومـــا خطبـــي بهـــا؟ مـــالي أشـــاطرها الوجيعـــة مـــالي؟
ذانيتهـــا ولصـــوتها فـــي مســـمعي وقـــع النبـــال عطفـــن إثـــر بنـــال
وســـألتها: مـــن أنـــت؟ وهـــي كأنهـــا رســـم علـــى طلـــل مـــن الأطـــلال
فتململـــت جزعـــا وقالـــت: حامـــل لـــم تـــدر طعـــم الغمـــض منـــذ ليـــالي
قـــد مـــات والـــدها وماتـــت أمهـــا ومضـــى الحمـــام بعمهـــا والخـــال

وإلـــى هنـــا حـــبس الحيـــاء لســـانها وجـــرى البكـــاء بـــدمعها الهطـــال
فعلمـــت مـــا تخفـــي الفتـــاة وإنمـــا يحنـــو علـــى أمثالهـــا أمثـــالي
ووقفـــت أنظرهـــا كـــأني عابـــد فـــي هيكـــل يرنـــو إلـــى تمثـــال
ورأيـــت آيـــات الجمـــال تكفلـــت بـــزوالهن فـــوادح الأثقـــال
لا شـــيء أفعـــل فـــي النفـــوس كقامـــة هبفـــاء روعهـــا الأســـى بهـــزال
أوغـــادة كانـــت تريـــك إذا بـــدت شـــمس النهـــار فأصـــبحت كـــالآل [٢]

---

(١) ذكين: أي توقدن واشتعلن.

(٢) الآلؤ السراب.

قلت: انهض قالت: أينهض ميت ... من قبره ويسير شن بالي [1]
فحملت هيكل عظمها وكأنني ... حملت حين حملت عود خلال
وطفقت أنتهب الخطا متيمماً ... بالليل (دار رعاية الأطفال)
أمشي وأحمل بائسين: فطارق ... باب الحياة ومؤذن بزوال [2]
أبكيهما وكأنما أنا ثالث ... لهما من الإشفاق والإعوال [3]

***

وطرقت باب الدار لا متهيبا ... أحداً ولا مترقبا لسؤال
طرق المسافر آب من أسفاره ... أو طرق رب الدار غير مبالي
وإذا بأصوات تصيح: ألا افتحوا ... دقات مرضي مدلجين عجال
وإذا بأيد طاهرات عودت ... صنع الجميل تطوعت في الحال
جاءت تسابق في المبرة بعضها ... بعضا لوجه الله لا للمال
فتناولت بالرفق ما أنا حامل ... كالأم تكلأ كفلها وتوالي
وإذا الطبيب مشمر وغذا بها ... فوق الوسائد في مكان عالي
جاءوا بأنواع الدواء وطوفوا ... بسرير ضيقتهم كبعض الآل
وجثا الطبيب يجس نبضا خافتا ... ويرود ممكن دائها القتال
لم يدر حين دنا ليبلو [4] قلبها ... دقائق قلب أم دبيب نمال؟

***

(١) الشن. القربة الخلق البالية.

(٢) طارق باب الحياة: الجنين، ويريد بالمؤذن بالزوال: أمه.

(٣) الإعوال، البكاء.

(٤) يبلو: أي يختبر.

obeikandl.com

ودعتهـــا وتركتهـــا فـــي أهلهـــا ... وخرجـــت منشـــرحا رضـــي البـــال
وعجـــزت عـــن شـــكر الـــذين تجـــردوا ... للباقيـــات وصـــالح الأعمـــال
لـــم يخجلوهـــا بالســـؤال عـــن اســـمها ... تلـــك المـــروءة والشـــعور العـــالي
خيـــرا الصـــنائع فـــي الأنـــام صـــنيعة ... تنبـــو بحاملهـــا عـــن الإذلال
وإذا النـــوال أتـــى ولـــم يهـــرق لـــه ... مـــاء الوجـــوه فـــذاك خيـــر نـــوال
مـــن جـــاد مـــن بعـــد الســـؤال فإنـــه ... –وهـــو الحـــواد– يعـــد فـــي البخـــال

***

لله درهـــم فكـــم مـــن بـــائس ... جـــم الوجيعـــة ســـيء الأحـــوال
ترمـــي بـــه الـــدنيا فمـــن جـــوع إلـــى ... عـــرى إلـــى ســـقم إلـــى إقـــلال
عـــين مســـهدة وقلـــب واجـــف ... نفـــس مروعـــة وجيـــب خـــالي
لـــم يـــدر نـــاظره أعريانـــا يـــرى ... أم كاســـياً فـــي تلكـــم الأســـمال
فكـــأن ناحـــل جســـمه فـــي ثوبـــه ... خلـــف الخـــروق يطـــل مـــن غربـــال
يـــا بـــرد فاحمـــل قـــد ظفـــرت بـــأعزل ... يـــا حـــر تلـــك فريســـة المغتـــال
يـــا عـــين ســـحي يـــا قلـــب تفطـــري ... يـــا نفـــس رقـــي يـــا مـــروءة والـــى
لـــولاهم لقضـــي عليـــه شـــقاؤه ... وخـــلا المجـــال لخـــاطف الآجـــال
لـــولاهم كـــان الـــردي وقفـــا علـــى ... نفـــس الفقيـــر ثقيلـــة الأحمـــال

***

لله در الســـاهرين علـــى الألـــي ... ســـهروا مـــن الأوجـــاع والأوجـــال [1]
القـــائمين بخيـــر مـــا جـــاءت بـــه ... مدنيـــة الأديـــان والأجيـــال
أهـــل اليتـــيم وكهفـــه وحماتـــه ... وربيـــع أهـــل البـــؤس والإمحـــال [2]

***

(١) الأوجال: المخاوف.

(٢) الإمحال: الجدب.

obeikandl.com

لا تهملـــوا فـــي الصـــالحات فـــإنكم ... لا تجهلـــــون عواقـــــب الإهمـــــال
إنـــي أرى فقـــراءكم فـــي حاجـــة ... -لا تعلمـــــون- لقائـــــل فعـــــال
فتســـابقوا الخيـــرات فهـــي أمـــامكم ... ميـــدان ســـبق للجـــواد النـــال [1]
والمحســـنون لهـــم علـــى إحســـانهم ... يـــوم الإثابـــة عشـــرة الأمثـــال
وجـــزاء رب المحســـنين يجـــل عـــن ... عـــدة وعـــن وزن وعـــن مكيـــال

وقال في سنة ١٩١١ يدعو إلى العطف على البؤساء:

دعـــوة البـــائس المعـــذب ســـور ... يـــدفع الشـــر عـــن حيـــاض الكـــرام
وهـــي حـــرب علـــى البخيـــل وذي البغـــ ... ـــي وســـيف علـــى رقـــاب اللئـــام
إن هـــذا الكـــريم قـــد صـــان عرضـــي ... وحمـــاني مـــن عاديـــات الســـقام
عـــال طفـــل وعـــالني وحبـــاني ... بكســـاء وبـــدرةٍ وطعـــام
وهـــو مـــن معشـــر أغـــاثوا ذوي البـــؤ ... س وقـــاموا فـــي الله خيـــر القيـــام
وأقـــاموا للبـــر داراً فكانـــت ... خيـــر وردٍ يؤمـــه كـــل ظـــامي
ملئـــت رحمـــة وفاضـــت حنانـــاً ... فهـــي للبائســـات دار الســـلام

إلى أن قال في الإحسان والزكاة:

قـــد نجـــا المـــنعم الجـــواد مـــن المـــوْ ... ت بفضـــل الزكـــاة والإنعـــام
فأطفنـــا بهـــا وقـــد مـــلأ الأنـــ ... ـــفس منـــا جـــلال ذاك المقـــام
وشـــهمدنا ثغـــر الوفـــاء تجلـــي ... إذ تجلـــي فـــي ثغرهـــا البســـام
ورأينـــا شـــخص المـــروءة والبـــ ... ـــر تبـــدي فـــي شـــخص ذاك الهمـــام
وعلمنـــا أن الزكـــاة ســـبيل الله ... قبـــل الصـــلاة، قبـــل الصـــيام
خصـــها الله فـــي الكتـــاب بـــذكر ... فهـــي ركـــن الأركـــان فـــي الإســـلام
بـــدأت مبـــدأ اليقـــين وظلـــت ... لحيـــاة الشـــعوب خيـــر قـــوام
لـــو وفـــي بالزكـــاة مـــن جمـــع الدنـــ ... ـــيا وأهـــوي علـــى اقتنـــاء الحطـــام
مـــا شـــكا الجـــوع معـــدم أو تصـــدى ... لركـــوب الشـــرور والآثـــام

---

(١) الجواد. الكريم والنال. الكثير النائل وهو العطاء.

obeikandl.com

راكبـــاً رأســـه طريـــداً شـــريداً ... لا يبـــالي بشـــرعةٍ أوذمـــام
ســـائلا عـــن وصـــية الله فيـــه ... آخـــذاً قوتـــه بحـــد الحســـام

ملجأ الحرية

ومن قصيدة له سنة ١٩١٩ في تحية ملجأ الحرية، وفيها يهيب بالأثرياء أن يبروا الأيتام والفقراء، ويشير إلى يقظة الأمة سنة ١٩١٩ وما أحدثته الثورة في النفوس من التطلع إلى المثل العليا.

أيهـــا الطفـــل لـــك البشـــرى فقـــد ... قـــدر الله لنـــا أن ننشـــرا [١]
قـــدر الله حيـــاة حـــرة ... وأبـــي ســـبحانه أن تقبـــرا
لا تخـــف جوعـــاً ولا عريـــاً ولا ... تبـــك عينـــاك إذا خطـــب عـــرا [٢]
لـــك عنـــد البـــر فـــي ملجئـــه ... حيـــث تـــأوي خـــاطر لـــن يكســـرا
حيـــث تلقـــي فيـــه حـــدبا وتـــرى ... بـــين أترابـــك عيشـــاً أنضـــرا

***

لا تســـئ ظنـــا بمثرينـــا فقـــد ... تـــاب عـــن آثامـــه واســـتغفرا
كـــان بـــالأمس وأقصـــى همـــه ... –إن أتـــى عارفـــة [٢] – أن يظهـــرا
فغـــدا اليـــوم يواســـي شـــعبه ... وهـــو لا يرغـــب فـــي أن يشـــكرا
نبهـــت عاطفـــة البـــر بـــه ... محنـــة عمـــت ومقـــدار جـــري
جمعتنـــا فـــي صـــعيد واحـــد ... وأرادتنـــا علـــى أن نقهـــرا
فتعاهـــدنا علـــى دفـــع الأذى ... بركـــوب الحـــزم حتـــى نظفـــرا
وتواصـــينا بصـــبر بيننـــا ... فغـــدونا قـــوة لا تـــزدري

---

(١) نشرة: أي نحيا ونبعث

(٢) عرا: ألم ونزل.

أنشرت [1] في مصر شعباً صالحاً ... كان قبل اليوم منفك العرا
كم محب هائم ف يحبها ... ذاد عن أجفانه سرح الكرى
وشباب وكهول أقسموا ... أن يشيدوا مجدها فوق الذرا

***

يا رجال الجد هذا وقته ... آن أن يعمل كل ما يرى
ملجأ أو مصرفا أو مصنعا ... أو نقابات لزراع القرى
أنا لا أعذر منكم من وني ... وهو ذو مقدرة أو قصرا
فابدءوا بالملجأ الحر الذي ... جئت للأيدي له مستمطرا
واكفلوا الأيتام فيه واعلموا ... أن كل الصيد في جوف الفرا
أيها المثري! ألا تكفل من ... بات محروماً يتيماً معسرا؟
أنت ما يدريك لو أنبته ... ربما أطلعت بدراً نيرا
ربما أطلعت (سعداً) آخراً ... يحكم القول ويرقى المنبرا
ربما أطلعت منه (عبده) ... من حمى الدين وزان (الأزهرا)
ربما أطلعت منه شاعراً ... مثل (شوقي) نابهاً بين الورى
ربما أطلعت منه فارساً ... يدخل الغيل على أسد الشرى [3]
كم طوي البؤس نفوساً لو رعت ... منبتاً خصباً لكانت جوهراً
كم قضى العدم على موهبة ... فتوارت تحت أطباق الثرى

***

كل من أحيا يتيما ضائعاً ... حسبه من ربه أن يؤجرا
إنما تحمد عقبي أمره ... من لأخراه بدنياه اشترى

---

(٢) العارفة: العطية والمعروف.

(١) أنشرت: أي أحيت.

(٣) الغيل: الشجر الكثير الملتف تأوي إليه الاسود، والشرى: مأسدة جانب الفرات بضرب بأسادها المثل.

obeikandi.com

جمعية إعانة العميان

وقال في سنة ١٩١٦ في احتفال أقامته جمعية إعانة العميان:

إن حـــق الضـــرير عنـــد ذوي الأبـــ ـــصار حـــق مســـتوجب التقـــديس
لـــم يضـــره فقدانـــه نـــور عينيـــ ـــه إذا اعتـــاض عنهمـــا بـــأنيس
آنســـوا فنســـه إذا أظلـــم العيـــ ـــش بعلـــم فـــالعلم أنـــس النفـــوس
وجهـــوه إلـــى الفـــلاح يفـــدكم فـــوق مـــا يســـتفيده مـــن دروس
أكملـــوا نقصـــه يكـــن عبقريـــا مثـــل (طـــه) مبـــرزاً فـــي الطـــروس
كـــم رأينـــا مـــن أكمـــة لا يجـــاري وضـــرير يرجـــي ليـــوم عبـــوس
لـــم تقـــف آفـــة العيـــون حجـــازاً بـــين وثباتـــه وبـــين الشـــموس
عـــدم الحـــس قائـــداً فحـــداه هـــدى وجدانـــه إلـــى المحســـوس
مثـــل هـــذا إذا تعلـــم أغنـــى عـــن كثيـــر وجاءنـــا بـــالنفيس
ذاك أن الـــذكاء والحفـــظ حـــلا فـــي جـــوار النهـــي بتلـــك الـــرءوس
فعلـــى كـــل أكمـــةٍ وبصـــير شـــكر أعضـــائكم وشـــكر الـــرئيس

المال والعلم والأخلاق

قال سنة ١٩٢١ باسم مصر، قصدته– مصر تتحدث عن نفسها:

وارفعـــوا دولتـــي علـــى العلـــم والأخـــلا ق فـــالعلم وحـــده لـــيس يجـــدي

وقال سنة ١٩١٠ من قصيدة له (ص ١٢٦) في الحث على إعانة مدرسة للبنان ببورسعيد:

كـــم ذا يكابـــد عاشـــق ويلاقـــي فـــي حـــب مصـــر كثيـــرة العشـــاق
إنـــي لأحمـــل فـــي هـــواك صـــبابة يـــا مصـــر قـــد خـــرج عـــن الأطـــواق
لهفـــي عليـــك متـــى أراك طليقـــة يحمـــي كـــريم حمـــاك شـــعب راقـــي
كلـــف بمحمـــود الخـــلال متـــيم بالبـــذل بـــين يـــديك والإنفـــاق
إنـــي لتطربنـــي الخـــلال كريمـــة طـــرب الغريـــب بأوبـــة وتلاقـــي

obeikandl.com

وتهزنـــي ذكـــرى المـــروءة والنـــدى بـــين الشـــمائل هـــزة المشـــتاق

***

فـــإذا رزقـــت خليقـــة محمـــودة فقـــد اصـــطفاك مقســـم الأرزاق
فالنـــاس هـــذا حظـــه مـــال وذا علـــم وذاك مكـــارم الأخـــلاق
والمـــال إن لـــم تـــدخره محصـــنا بـــالعلم كـــان نهايـــة الإمـــلاق [1]
والعلـــم إن لـــم تكتنفـــه شـــمائل تعليـــه كـــان مطيـــة الإخفـــاق
لا تحســـبن العلـــم ينفـــع وحـــده مـــا لـــم يتـــوج ربـــه بخـــلاق [2]

فضل المرأة على المجتمع

وقال في هذه القصيدة ينوه بفضل المرأة في المجتمع:

مـــن لـــي بتربيـــة النســـاء؟ فإنهـــا فـــي الشـــرق علـــة ذلـــك الإخفـــاق
الأم مدرســـــــة إذا أعـــــدتها أعـــددت شـــعباً طيـــب الأعـــراق [4]
الأم روض إن تعهـــــده الحيـــــا [3] بـــــالري أورق أيمـــــا إيـــــراق
الأم أســـــتاذ الأســـــاتذة الألـــــي شـــغلت مـــآثرهم مـــدى الآفـــاق

***

---

(١) الإملاق: الفقر.

(٢) الخلاق: النصيب من الخير والصلاح.

(٣) الحيا: المطر.

(٤) الأعراق: الأصول، الواحد عرق.

obeikandl.com

أنـــا لا أقـــول دعـــوا النســـاء ســـوافراً بيـــه الرجـــال يجلـــن فـــي الأســـواق
يـــدرجن حـــين أردن لا مـــن وازع يحـــذرن رقبتـــه ولا مـــن واقـــي
يفعلـــن أفعـــال الرجـــال لواهيـــا عـــن واجبـــات نـــواعس الأحـــداق
فـــي دورهـــن شـــئونهن كثيـــرة كشـــئون رب الســـيف المـــزراق [1]
كـــلا ولا أدعـــوكم أن تســـرفوا فـــي الحجـــب والتضـــييق والإرهـــاق
ليســـت نســـاؤكم حلـــي وجـــواهراً خـــوف الضـــياع تصـــان فـــي الأحقـــاق
ليســـت نســـاؤكم أثاثـــا يقتنـــي فـــي الـــدور بـــين مخـــادع وطبـــاق
تتشـــكل الأزمـــان فـــي أدوارهـــا دولا وهـــن علـــى الجمـــود بـــواقي
فتوســـطوا فـــي الحـــالتين وأنصـــفوا فالشـــر فـــي التقييـــد والإطـــلاق
ربـــوا البنـــات علـــى الفضـــيلة إنهـــا فـــي المـــواقفين لهـــن خيـــر وثـــاق
وعلـــيكم أن تســـتبين بنـــاتكم نـــور الهـــدي وعلـــى الحيـــاء البـــاقي

المناصب والفضائل

من قوله في رثائه لمحمود سامي البارودي:

إن المناصـــب فـــي عـــزل وتوليـــة غيـــر المواهـــب فـــي ذكـــر وتخليـــد

ومات حافظ سنة ١٩٣٢ بعد أن خلف لمصر والشرق ذخيرة من الوطنية وكنوزا من الشعر والحكمة والأخلاق لا تفني ولا تنفد على مر الزمان.

---

(١) المزراق: الرمح.

obeikandl.com